
www.kotobarabia.com
أمام الباب
www.kotobarabia.com
فولفجانج بورشرت
ترجمها عَنِ الألمانيَّة
د. مجدي يوسف

أمام الباب

(مسرحيـة لا يقبـل لمسرح بعرضها ولا لجمهور بمشاهدتها)

كتبها

فولفجانج بورشرت

ترجمها عن الألمانيـة

د. مجدي يوسف

فهرس

أمام الباب

مسرحيـة تتألـف من خمسة مشاهد

الشخصيـات

بيكمان : واحد من الغالبية اليائسة.. التي سـحقتها الحرب.

زوجه : التي نسيته.

وصاحبها : الذي تعشقه.

الفتاة : التي عاد زوجها إلى وطنه بساق واحدة.

وزوجها : الذي يحلم بها ألف ليلة في سيبريا.

الكولونيل : السعيد.

وزوجته : التي ترتعد في حجرتها الدافئة.

وابنتهما : تتناول طعام العشاء.

زوج الابنة.

مدام كرامر : التي لا تعدو كونها مدام كرامـر، وهـذا

في حد ذاته يبعث على الخوف!

مدير الملهى الليلي : الذي يفضل أن يظل جبانًا علـى رغبتـه في أن يكون شجاعا!

الرجـــــل العجوز : الذي لم يعد يؤمن به أحد.

الحانوتي : بتجشئه المنفـر!

كناس ألماني.

الآخر.

الألبيه (نهر يجري في شمال ألمانيا)

مقدمة الطبعة الثانية

بقلم المترجم

بعد مضي نيفٍ وأربعين عاما على ترجمتي لهذه المسرحية أعيد اليوم إصدارها في ظل اختلاف شاسع بين المجتمع العربي آنذاك، ومجتمعاتنا العربية الممزَّقة الجريحة في يومنا هذا. كان القارئ العربي آنذاك يرى فيها نموذجا فنيا لتجربة غريبة على واقعه، لصرخة الإنسانية المحتضرة في وجه الفاشية الغربية كما تسجلها لوحة "جرنيكا" لبيكاسو، وكما تعبر عنها جل أعمال "فولفجانج بورشرت". أما اليوم فقد صارت هذه المسرحية – على بشاعة ما تدينه – أقرب إلى تصوير يوميات مجتمعاتنا العربية.. لا سيما في العراق وفلسطين.

عندما ترجمت النصّ عن الألمانية كنت آنذاك في مقتبل العشرينيات من العمر؛ وهكذا أحسست انخراطًا شديدا في تجربة المؤلف وثورته "التعبيرية" الصارخة على بشاعة الحرب وتحويلها الإنسان إلى شيء أقل من الجماد رغم أنني لم أكن قد خبرت حربا في حياتي،

ولعل حماسي آنـذاك للعمـل ومؤلـفه يتبـدَى بوضـوح في المقدمة التي صدَرت بها آنذاك الطبعـة الأولـى لهـذه الترجمة. أما الآن فالأمر يختلف.. وكم هو مختلف!.

(م.ي)

ملاحظات حول هذه المسرحيـة

وحياة مؤلفها

مـثـل نصُ هذه الترجمة فـي بغـداد عـام ١٩٦٢ (إخراج الراحل عوني كرومي) وفي تـونس عـام ١٩٧٠، كما أنه وقع عليه الاختيار ليمثـل لبنان رسميا في مهرجان المسرح التجريبي بالقاهرة في سبتمبر ١٩٩٤ حيث عـرِض على مسرح محمد فريد (إخراج: شكيب خوري)، وفي عـام ١٩٩٨ أخرجه مسرح الشباب على المسرح العائم بالقـاهرة. أمـا الترجمة نفسها فأنجزتها عام ١٩٦٠ ونُشِرت لأوَل مرة في كتاب عام ١٩٦٢، وجدير بالذكر أن هـذه المـسرحيـة قد وزع مـن طبعتهـا الألمانيـ ـة حتـى الآن مـا يزيـد عن المليوني نسخة، وهي من النمـاذج الأدبيـ ـة المقـرَرة على كافة المدارس الثانويـة في ألمانيا، وقد تعرَفـت عـام ١٩٦٣ على ناشرها في هامبورج – السيد "ليدغ روفولـت"، صاحب دار نشر "روفولت"، الذي كان قـد تفـضل آنـذاك بالتنازل عن حقوق المؤلـف، بعد الرجـوع إلـى ورثتـه، للطبعة العربيـة لترجمة عمله هذا، وجدير بالذكر أن هـذه

إلى الفهرس

المسرحيـة قد تُرجِمت إلى نيف وعشرين لغة، وقد تعرَفـت – أيـضا عـام ١٩٦٣ – علـى والـدة المؤلـف، الـسيدة "هرتا بورشرت"، وشاهدت في دارها في هـامبورج غرفـة وحيدها "فولفجانج"، الـذي اختطفـه المـوت عـام ١٩٤٧، وقد احتوت على أرفف كاملة من الترجمات والأعمال التـي نُشِرت حول ما خلـفه من إنتاج أدبي لم يزد على المجادين، فقد توفي وهو في السادسة والعشرين من العمر.. كما أنـي تعرَفت على "هانس كفست" Hans Quest أول مـن لعـب دور "بيكمان" في هذه التمثيليـة التي أذاعتها لأوَل مرة بعـد الحرب العالميـة الأخيرة محطـة إذاعـة شـمال ألمانيـا – من هـامبورج – وحينمـا اسـتمع آنـذاك "فولفجـانج" إلى "هانس كفست" في دور "بيكمان" قرَر وهو على فـراش الموت أن يهدي مسرحيته إليه: إلـى "كفـست"، ولا زالـت الطبعة الألمانيـة تحمل هذا الإهداء حتى يومنا هذا.

وفي نفس العام الذي تعرَفت فيه على والدة "بورشرت"، وناشره، وأوَل من مثـل دور ضابط الصف" بيكمان " بعـد الحرب العالميـة الأخيرة، في نفس ذاك العـام – ١٩٦٣ – تعرَفت كذلك على "هـاينتس رانيكـه " Heinz Reinecke

الممثل الألماني الذي كان آنذاك من أبـرز فنـاني مـسرح بلديـة هامبورج، والذي توحـد تماما برسالة "بورشـرت" في مسرحيته هذه التي تدين الحرب بكل ما تملك من قـوَة، حتى أن النقد الأدبي الألماني يعتبرها مـن آثـار التعبيريـة المتـأخرة Expressionistisch والفـارق بـين أداء "رينكيه "العفوي التلقائي والـصنعة المتـدثرة بعقلانيـة شكليـة أن "بيكمان" كفست – كما قالت لي والدة "بورشرت"، التي كانت شديدة الإعجاب بعرض "رينكيه" لنفس الـدور – هو "بيكمان" حاصل على شـهادة التوجيهيـة الألمانيـة، على الـ Abitur (وهي التي لا يحصل عليها فـي العـادة أبناء عامة الشعب الذين يتوجـهون إلى التعليم الحرفي منـذ حداثتهم)، أمـا "بيكمان" رينكيه، فهـو "بيكمـان" الـشعبي، التلقائي، الذي لا تكاد أن تحسَ فيه بصنعة "التمثيل".

وأخيرا، وقبل أن أختم هذه الملاحظـات التـي قـصدت أن أذيـل بها مقدمة الطبعة الثانية، بـدلاً مـن أن أضـعها في صلب المتن، أودُ أن أشير إلى حقيقة تاريخيـة لم تُنْـشَر حتـى الآن فـي كافـة اللغـات التـي قـدَمـت حيـاة "فولفجانج بورشرت"، وهي قصة حبـه لأشـهر مـصورة

(فوتوغرافيا) للمسرح في ألمانيا – لـ "روزه ماري كلاوزن" Rosemarie Clausen التـي تـزين بأعمالهـا التقـاويم السنويـة. والسر في عدم نشر هـذه القـصة هـو خـشية "روزه ماري كلاوزن" من جام غضب" هرتا بورشرت" والدة "فولفجانج". فعندما استقبلتني "روزه ماري كلاوزن" في دارها في هامبورج عام ١٩٦٣ أطلعتني على خطابات الحب التـي بعث بها إليها "فولفجانج بورشرت"، وكـان يـدعوها فيهـا "مصباح طريقي" Meine Laterne ويرسم فانوس شـارع في مقدمة خطابه إليها، كما كان يصدر خطابات حبه إليهـا بعبارة "يا أميرتي" Meine Prinzessin. ومع كـل ذلـك لم تكن " روزه ماري كلاوزن" مؤمنة بموهبـة "فولفجـانج" الأدبيـة، كما أنها كانت تخشى على نفسها وأطفالها الرضع آنذاك – في أعقاب الحرب العالميـة الأخيـرة مباشـرة – من أن يصابوا بالعدوى من المـرض الـذي كـان يعـاني منه "فولفجانج" والذي أدّى إلى وفاته: الصفراء. فكانت تعامله – على حبها له – بجفاء وحذر لم يثنه عـن بـذل المزيـد من الحب لها وهي التي كانت تكبره فـي الـسن آنـذاك.. من هذه الخلفيـة كانت "روزه ماري كـلاوزن" لا تجـرؤ

على أن تذيع على الملء قصة حب "فولفجانج" لهـا؛ خـشية حدّة غضب والدته "هرتا" التي كانت – بالطبع – على علـم بكل ملابسات تلك العلاقة التعيـسة، ولكـن "روزه مـاري كلاوزن" سمحت لنفسها أن تبوح لي بأسرار تلـك العلاقـة وأن تطلعني على وثائقها وخلفياتها؛ إذ إنني كنت بالنسبة لهـا "زائرا من بلد بعيد".. وكنت قد وقفت على سر هذه العلاقـة بالصدفة عندما زرت "روزه ماري كلاوزن" في عام ١٩٦٣ في دارها في "هامبورج" لأحـصل منهـا علـى لوحاتهـا الفوتوغرافيـة التي التقطتها لعـروض مـسرحيـة "أمـام الباب".

(د. مجدي يوسف)

مقدمة المترجم للطبعة الأولى

عاش ربيع حياته جنديا في النازي، رحل إلى ميدان القتال في روسيا، وعانى بإحساس فنان مرهف أهوال الحرب، فترجمها إلى أعمال فنية تُعتبرُ من السجلات التي تعتزُ بها الإنسانية.

ولعل حياة بورشرت نفسه مأساة لا يمكن أن نفصلها بحال عن أعماله القصصية والمسرحية. فقد جند ولم يتعدَ عامه الثامن عشر. ترك خشبة المسرح إلى ميدان القتال، واضطرمت في نفسه الفتية ثورة عارمة على تلك الأطماع الوهمية التي حاول الزعيم النازي أن يزينها للشعب الألماني: نظرية المجال الحيوي، الحرب المشتعلة الخاطفة، العنصر الألماني المتفوق.

وضبط أحد القوَاد بعض رسائل بورشرت، وزجَ به في السجن، وظل فولفجانج بورشرت ينتظر تنفيذ الإعدام فيه ستة أسابيع كاملة، داخل زنزانة رطبة ضيقة. فقد كانت رسائله الحميمة تحوي "تجديفًا" على الفوهرر.. هتلر.

إلى الفهرس

وكأن الزعيم رق قلبه فجأة لتضرُّعات التـاريخ الـذي أراد أن يسجـل بقلم أحد أبنائه العبـاقرة سـكرات المـوت ولحظات الفناء.. في الحرب.. فأصدر أمره بـالإفراج عـن بورشرت وإرساله إلى الجبهة الشرقيـة. إلى سـتالينجراد. وفي روسيا شاهد بورشرت الأهوال.. صقيعا تذيبه حـرارة الدماء.. دماء العنصر المتفوق، دماء النازي، ودماء أقرانـه ورؤسائه. ويجرح بورشرت ولكن جرح نفسه كـان أغـور بكثير مما أصاب بدنه.

وخرج من الحرب بعد ست سنوات كعجوز مضى عليه أكثر من ستين عاما، ولكن بورشرت لم يتعد آنئـذ ربيعـه الرابع والعشرين، وحين عاد إلى مسقط رأسـه "هـامبورج" كان قد أصبح حطاما لا رجاء فيه.. كان يوقن أنه على موعد مع الموت؛ فكتب وأنكبَ على القرطـاس يـدون أشـعاره وقصصه، ولكنه لم يكن يكتب أدبا.. مجرد أدب، بـل كـان يعلم أنه في كل كلمة يخطها قلمه، إنما يتـرك للإنـسانيـة رسالة ضحيـة.. من الكثيرين الذين راحوا قربانًا للحرب.

إلى الفهرس

أمام الباب

وليس من عجب في أنه خلـف لنا في العامين اللـذين عاشهما بعد انتهاء الحرب ما يعجز جيل بأكملـه أن يبدعـه في نفس المستوى؛ فقد كان بورشرت شاعرا مرهفًا، ساهمت الحرب في شحذ إمكانياته الفنية وبلورتها في عمـل كبيـر. وكتب القصة القصيرة بأسلوب شاعر، كما كتب مـسرحيته الوحيدة بحوار عبقري. حتى أصبحت "أمام الباب" – وهـو عنوان مسرحيته – في مقدمة ما أُلـف في المسرح الألماني المعاصر.

فـ"أمام الباب" عمل فني من نوع فريد يستحيل عليـك أن تضع عليه لافتة معيـنة، إنما تحسُّ أنك لا تملك بإزائـه إلا الانحناء، وقد أُذِيعت هذه المسرحيـة في معظم الإذاعات الألمانيـة، وأُخرجت على المسرح حيث شاهدها الجمهـور غداة يوم وفاة مؤلـفها.

فقد مات بورشرت بعيدا عن وطنه. في بـازل، حيـث كان يستشفي هناك في العشرين من نوفمبر (تشرين الثـاني) عام ١٩٤٧ بعد انقضاء عامين على انتهاء الحرب العالميـة الأخيرة. وما زالت قصصه ومسرحيته الخالدة "أمام البـاب"

تلقى من النظـارة اهتماما وإقبالاً عظيمين حتى يومنا هذا.. حتى قال أحد القادمين من هامبورج – إنها عرضـت سـتة أشهر متـصلة هناك، وأُنتُزعت من المسرح انتزاعا لتمثـل على مسرح نورمبرج، العاصمة الثانية للمسرح في ألمانيـا الغربيـة..

ويقوم بالدور الرئيسي فيها أحد أئمة المسرح الألمـاني المعاصر وهو الفنان هينتس رينكيه – يقـوم بـدور البطـل "بيكمان"؛ ضابط صف عائد من الحرب، من سـيبريا حيـث قضى سنوات ثلاثًا يرتعد من البرد، والآن يغلفه من الـداخل يأس قاتل، وبطنه يزمجر بالجوع، ولكن المجاعة تعمُّ ألمانيا. والأبواب.. كلها ما إن يطرق أحدها فيفتح له حتى يعود بعد برهة ليصفع في وجهه. ويقف هو في الخارج. أمام البـاب، وحيدا يمزقه القلق والجوع والحاجة إلـى الـدفء.. فيرقـد على الرمال علـى شـاطئ بلانكنزيـه (ضـاحية بـالقرب من هامبورج) ليغفو في حلم.

ويظهر له صوت غريب لا وجه لصاحبه.. إنـه هـو نفسه.. من داخل نفـسه اليائـسة.. المحطـمة، ويـدور الحوار... بين "أنا" بيكمان.. وذلك الصوت الآخر:

بيكمان : قل نعم بالقدر الذي تشاء. اذهب عني لـست أريدك أقول لا.. لا.. اذهب عني أقول لا.. ألا تسمع؟

الآخر : أجل أسمع. ومن أجل هذا أبقى هنا. من أنت إذن أيها القائل "لا"؟

بيكمان : أُدعى بيكمان.

الآخر : أليس لك اسم ميلاد أيها القائل "لا"؟

بيكمان : لا. منذ الأمس. منذ الأمس وأنا لا أُدعى إلا بيكمان ببساطة بيكمان. كما تُدعى المائـدة مائدة.

الآخر : ومن يدعوك مائدة؟!

بيكمان : زوجتي. لا. تلك التي كانت زوجتـي. فقـد غبت ثلاثة أعوام في روسيا، وبالأمس عدت إلى داري؛ وهنا حـدثت المأسـاة. أتعلـم أن ثلاث سنوات وقت طويـل – بيكمـان.. هكذا دعتني زوجتي. بيكمان بكل بـساطة. بعد غيبة ثلاثـة أعـوام. قالـت بيكمـان كما تدعو المائـدة مائـدة. قطعـة الأثـاث

بيكمان. ألقوا به إلى الخارج.. ذلك المقعـد بيكمان. أترى من أجل هـذا فقـدت اسـم ميلادي. فهمت؟.

الآخر : والآن لِـم تترقـد هكـذا علـى الرمـال؟ في منتصف الليل؟ على ضفـة الماء؟

بيكمان : لأني لا أستطيع النهوض. فقد أحضرت معي ساقًا متيبسة.. كـذكرى طيبـة مثـل هـذه الذكريات وإلا فسرعان ما سننسى الحرب.

خصائص أسلوبه

وإذ أحمل على عاتقي تقديم كاتب فحـل وفنـان قـدير كبورشرت إلى قُرَّاء العربيـة، ربما لأوَّل مرة.. فلا مناص من أن يستعرض المرء بعض خصائص أسلوب بورشـرت الذي تخلـص من قيود الكتابة التقليدية – خاصة في حواره المسرحي – حتى لتكاد أن تحسَّ بأنه يعايش بقلمه قطاعا حيا من الحياة؛ فهو حين يتحدَّث على لسان أبطال المـسرحيـة يفاجئك منهم بألفاظ وتصرُّفات جديـدة تمامـا علـى الأدب الألماني التقليدي الذي عـرِف بالتزمـت واختيـار اللفـظ الرشيق المـتأدب.

أمـا بورشرت فلا يجد بأسا في بعض أجزاء حـواره من أن يجعل نهر الألبيه الذي انتفض شيخًا عجـوزا يؤنـب بيكمان على محاولته الانتحار بإلقاء نفسه فيه فيبادره بقولـه: إنني أبول على انتحارك، أيها الغرير. ألم يبرح المخاط أنفك بعد – أيها الرضيع، وتقول إنك خبرت من الحياة كفايتك؟

ولا شكَ أن هـذا الأسـلوب غيـر المتكلـف خاصـة في الحوار قد عرفته المدرسة الواقعية فـي الأدب الألمـاني المعاصر وعلى رأسها الكاتب المسرحي "تسوكمايو".

وأنت تحسُ من بين الكلمـات والـسطور حـين تقـرأ بورشرت بإحساس من يبصق على الحرب التي جعلته يودع الحياة وهو ما زال في ريعان شبابه.

وهو ليس سوى واحد من الكثيرين الذين ودَعوا الحيـاة دون جريرة اقترفوها؛ لذلك فهو يعتبرُ خير معبر عن لـسان ضحايا الحرب الذين طالما افتقروا إلى من يحمل أحاسيـسهم إلى الأحياء.

ولعل بورشرت أدَى مهمـته كأروع ما يمكن أن يؤديها فنان. فقد أعطى لنا تصويرا دقيقًا كأعمق ما يمكن للحظـات الفناء.. في أثناء الحرب. وفي المجاعة التي أعقبت الحـرب بضع سنوات في ألمانيا، حتى لا يدانيه في ذلـك المـضمار سوى يوناثان سويفت الكاتب الأيرلندي حين خلـد مجاعـة بلاده.

وبورشرت يمتاز بحساسيـة عبقريـة حـين يتنـاول شخصياته بحيث يجسدهم أو يبعثهم أحياء من جديد بقدرتـه

الخلاقة وملاحظاته وبصره الفني النافذ. فهـو فـي قـصة "الشارع الطويل" تحسُ أنك تلهث معه ومع أقدام العـساكر.. تك توك، تك توك، تك توك.

سبعة وثلاثون.. سبعة وثلاثون مـاتوا بـالأمس، وفتـاة صغيرة جائعة تسير إلى جوار أمهـا المتجهمـة، وتـضرع الصبية إلى ربها: أيها الرحمن، أعطني شيئًا مـن الحـساء. وتنهرها أمها: الله لن يعطيك حساء. وتتعجـب الطفلة لقول أمها.

- لماذا؟ ألا يملك الرحمن مغرفة!

وهكذا نجد عبقرية القاص في سبره لغور الطفلة التـي لا تدرك الله كما يدركه الكبار الذين أعياهم البحث عنه..

فالرحمن بالنسبة لها رجل كبير جدا يمتلك كل شـيء.. وليس من المعقول أنه لا يملك حساء. ولكنها لكي تقنع نفسها بصحـة ما قالته أمها – فالأم لا يمكن أن تقول بالنسبة لطفلة في مثل سنها إلا كل ما هو صحيح – تتصوَر أن الله لا يملك مغرفة. هذه هي المسألة.

المجاعة

و بورشرت يصور قطاعا من المجاعة التـي أعقبـت الحرب في ألمانيا. في قصته القـصيرة "الخبـز": عجـوز في الثالثة والستين يتقلـب علـى فراشـه والأرق يعذبـه.. لا بل هو الجوع الذي يطرد النوم من جفنيه.. ينهض ببطء، وعلى أطراف قدميه يتسلل كلص إلى المطبخ المعتم، وتقـوم زوجة العجوز مفزوعة على صوت قرقعـة فـي المطـبخ، وتنصت فلا تستمع إلى (شخير) زوجها التقليدي، وحين تتوقن أنه غادر فراشه، تتسلل بدورها لتفاجئه في المطـبخ المعـتم وتضيء النور، ويحاول هو أن يعلل وجوده في المطبخ بأنه سمع فيه صوتًا غريبا، ولكنها أيقنت أنه لم يأت أبدا من أجل هذا.. ففتات الخبز المبعثرة على المائـدة والـسكين الراقـد إلى جوار كسرات الخبز تشهد عليه، وتدل نبـرات صـوته المضطرب جميعها على أنه لم يأت للتحقـق مـن صـوت غريب في المطبخ، ولكن زوجته تفتعل تـصديق روايتـه، وتطأطئ برأسها وهي تعاتبه علـى أنـه حـافي القـدمين على البلاط الرطب، بينما هي لا تريد أن تنظر إلى وجهـه العجوز الذي لم يبد من قبل كذلك.. فقد آلمها أنه كذب عليها،

كذب عليها بعد زواج دام تسعة وثلاثين عامـا.. وتـصحبه إلى الفراش متصنعة النوم.. وبعد برهة تنـام علـى رتابـة موسيقى مضغه الخبز، وفي اليوم التالي تعطيه أربع شـرائح من الخبز وتكتفي هـي بـاثنتين؛ متعللـة بأنهـا لا تقـوى على هضم الخبز في المساء.

انطباعات عن الحرب

ويروي بورشرت انطباعاته الدامية عن الحـرب أنـه لا يستطيع أن ينسى ذلك اليوم الذي شاهد فيه هذه الكلمـات ملطـخة بالدم على جانب إحدى عربـات النـازي: "سـتة أحصنة أو أربعون آدميا"، هذه هي فئة النقل فـي الحـرب. جنود أو يهود ليلقوا حتفهم في هوس. وتملأ العربـات عنـد عودتها – لمجرَّد ألا تعود فارغة – بالعبيد رقيق للمـصانع، رقيق من رجال ونساء وأطفال، من أولئـك الـذين لقـبهم "الزعيم" بالشعوب الحقيرة المتخلفـة.

ويلخص بورشرت فلسفته في هذه العبـارة: "ولكـن مـا جدوى أن نشيع الموتى إلى قبورهم.. فالورود لم تعد تتفـتح من أجلهم.. والخبز لم يعد يعجـن ليأكلوه، ولا الريح تهـب لهم، أطفالهم ييتمون، ونـساؤهم يتـرملن ومـآقي والـديهم لا تجف عليهم"..

غير أن بورشرت حقق قمة نضجه الفني فـي قـصته "ساعة المطبخ" التي ينفرد فيها بتـشريح لحظـة إنـسانيـة خالدة.. وتروي هذه القصة القصيرة في عبارات شاعريـ ـة البناء قصة فتى لـم يجـاوز ربيعـه العـشرين، وإن بـدا

على وجهه تجاعيد عجوز محطـم.. وفي يده ثمـة شـيء يطبق عليه بحرص، ويدفعه إلى أعلى من برهة لأخرى بينما يردد: كانت هذه ساعة مطبخنا، وهي آخر مـا تبقـى لـي، وتنصرف عنه العيون، عيون الجالسين على الأريكة تحـت الشمس، كل منهم غارق في مأسـاته، وصـاحبنا منطلـق في حديثه غير عابئ بذلك التجاهل الذي يحيطه! "ولكن أروع ما فيها أنها توقـفت على الثانية والنصف، الثانية والنـصف بالضبط".

وتعترض السيدة، فساعته عاطلة.. ما جدواها.. ويحاول أحدهم أن يفسـر له سبب توقـفها على الثانية والنـصف.. فحين تسقط القنابل تتوقـف الساعات بفعل الضغط، ولكـن صاحبنا يرفض باستنكار كل هذه التفسيرات الموضوعيـة. هذا هو بالفعل المضحك فـي الموضـوع، أنهـا توقـفت على الثانية والنـصف ولـيس علـى الرابعـة إلا الربـع أو السابعة.. ففي الثانيـة والنـصف كنـت أعـود دائمـا إلى المنزل، بعد منتصف الليـل.. دائمـا حـوالي الثانيـة والنصف، هذا هو بالفعل المهم في الموضوع.

وتطلع إلى الآخرين، ولكنهم أشاحوا عنه بوجوههم؛ فأطرق يهمس إلى ساعته "عندئذ كنت أشعر بالجوع طبعا.. أليس كذلك؟. فأذهب توا إلى المطبخ حيث أجدك تشيرين إلى الثانية والنصف ثُم.. ثُم تأتي أمي – فقد كنت أبذل غاية جهدي لأفتح الباب ببطء شديد، ولكنها كانت دائما تسمعني، وبينما أفتش في المطبخ المعتم باحثًا عن شيء أسدُّ به جوعي؛ إذ بالمطبخ ينار فجأة، وتقف أمي في سترتها الصوفية وشالها الأحور الذي تلفعت به وقدميها الحافيتين.. الحافيتين دائما، وكان بلاط مطبخنا رطبا، وكان الضوء شديدا على عينيها اللتين ضمتهما حتى أصبحتا صغيرتين جدا، فقد نهضت من نوم عميق.. عندئذ كانت تقول: مرة أخرى في هذه الساعة المتأخرة، ثُم تسخن لي العشاء وترمقني بعينيها بينما ألتهم الطعام.. وهي خلال كل ذلك تحكُّ قدميها الواحدة بالأخرى؛ فقد كان البلاط باردا جدا، إذ لا ترتدي في قدميها أي حذاء في المساء، وكانت تجلس بجانبي حتى أشبع، ثُم أسمعها وهي تزيل الأطباق بينما أكون قد أطفأت النور بحجرتي، ويتكرّر هذا كل مساء، ودائما حوالي الثانية والنصف، حتى كنت أجده أمرا طبيعيا للغاية،

فقد كانت تفعله دائما.. ولم تزد على قولهـا "مـرة أخـرى في هذه الساعة المتأخرة" ولكنها كانت تقول كل مرة، وكنت أتصوَر أن هذا لن يتوقـف. كان أمرا طبيعيا جدا. كل هذا، فقد كان يحدث دائما على هذه الوتيرة.

وزفر زفرة طويلة لبث على أثرها جامدا على الأريكة.. ثُم تابع حديثه بصوت خفيض. والآن؟. ونظر إلى الآخـرين ولكنهم لم يلتفتوا إليه؛ فأطرق هامسا إلى ساعته ذات الوجـه المستدير الأبيض ذي الملامح الزرقاء.. والآن.. والآن أدرك أنها كانت الجنة.. الجنة الحقيقيـة..".

وهكذا نحسُ في أدب فولفجانج بورشرت بهذا الحنـين الدافق إلى الأمن إلى الدفء الروحي، بعد أن سلبته الحـرب جنة السلام..

مدخل

الريح تهبُ قوية عارمة، ونهـر الألبيه يرتطم بالعوَامـات الراسـية على ضفتيه. الدنيا ليل. الحانوتي. وفي مواجهة السماء خيال إنسان.

الحانوتي : (يتجشأ بكثرة، وفي كل مرة يردد): كالـ ـ (يتجشأ) كالذباب؟ أقول كالذباب.

هيه - أرى شخصا هنـاك. علـى ظهـر العوامة. يبدو كما لو كـان مرتـديا حلـة عسكرية. أجل، إنه يرتدي معطفًـا قـديما لمحارب. ولا يضع قبعـة علـى رأسـه. ما أشبه شعره القصير بالفرشاة. إنـه يقـف دانيا من الماء. ها هو يقف علـى ضفـ ـة النهر. شيء مريب. فأولئك الـذين يقفـون في ظلمة المـساء علـى ضفـ ـة النهـر إما أن يكونوا عشاقًا أو شعراء. أو ربما كان

إلى الفهرس

واحدا من الغالبية اليائسة، التي لم يعد لهـا في الحياة رجـاء، التـي تلقـي بهمومهـا إلى أعماق البحـر، ولا تلبـث أن تختفـي من الوجود. يبدو علـى صـاحبنا الواقـف على ظهـر العوامـة أنـه واحـد مـنهم. إن في وقفته تلك الخطورة. فهو غالبا وحيد. ومن غير المعقول أن يكونـا عاشـقين؛ إذ لا بدّ من اثنين، وهو لا يمكـن أن يكـون شاعرا؛ فالشعراء شعورهم طويلـة – أمـا صاحبنا الواقف هناك على ظهـر العائمـة، فشعر رأسه أشبه بالفرشاة -. أمره غريب. هذا الواقف على ظهـر العائمـة -. أمـره غريب.. غريب.

(يسمعُ صوت غامض – وفجأة يختفي خيال الرجل)

(يتجشأ) عندك؟ لقد اختفى. قفز في المـاء. كان يقف علـى حافتـه. يبـدو أن اليـأس قد غلبه.والآن قد ذهـب (يتجـشأ) يمـوت

الواحد منا ثُم. لا شـيء. الـريح تـستمرُ في هبوبها. ونهر الألبيه ماضٍ في انـسيابه والترام يعود إلـى جلجلتـه. والموMـسات لا يبرحن النوافذ بوجوههنَ البيضاء الناعمة. والسيد كرامر يتقلـب على الجانب الآخـر ويستمرُ في غطيطـه. ولا تتوقـف سـاعة واحدة عن المسير. (يتجشأ) يموت الواحـد منا. ثُم؟ لا شـيء. مجـرد بـضع دوائـر على سطح الماء تشهد على أنه كان هنا ذات مرة. ولكنها سرعان ما تعود إلى هـدوئها. وما إن تتعدّاه حتى يصبح منـسيا، مهمـلاً، بلا أثر، وكأنه لم يوجد من قبل.. ولا شيء أكثر – هيه! من يبكي هناك؟ غريب.. شيخ عجوز يقف باكيا هناك!!

مساء الخير.

الشيخ : (بهلع) أبنائي.. أبنائي.. أبنائي..

الحانوتي : لِم تبكي أيها العجوز؟

الشيخ : لأني لا أستطيع أن أغير شيئًا – آه.. لأنـي

لا أقوى على تبديل شيء.

الحانوتي : (يتجشأ)! معذرة! هذا سيء على أي حـال، ولكن لا يجب من أجل هذا أن ينفجر الواحد منا كالعشيقة المهجورة.

الشيخ : آه يا أبنائي! إنهم جميعا أبنائي!

الحانوتي : عجبا (بسخرية) من تكون إذن؟

الشيخ : أنا الربُ الذي لم يعد يؤمن به أحد.

الحانوتي : ولِم تبكي؟؟ (يتجشأ)!معذرة!

الرب : لأني لا أقوى على تبـديل شـيء؛ لأنهـم يغتالون أنفسهم بالرصاص. لأنهم يعلقـون أنفسهم على المشانق. لأنهم يغرقون أنفسهم. لأنهم ينتحرون. اليوم مائة. غدا مائة ألـف. وأنا لا أقوى على تبديل شيء.

الحانوتي : حقًا أمر محزن أيها العجوز. ولكن لم يعـد يؤمن بك أحد. تلك هي المسألة.

الربُ : محزن... محزن. أنا هو الربُ الذي لم يعد يؤمن به أحد. فما عدت أقوى علـى تبـديل

شيء. آه يا أبنائي لم أعد أقوى على تبديل شيء. أمر محزن.. حقًا محزن.

الحانوتي : (يتجشأ) معذرة! كالذباب! (يتجشأ، مرة أخرى).

الربُ : لِم تتجشأ على الدوام بهذه الطريقة المنفرة؟ لشد ما هي منفرة.

الحانوتي : أجل.. أجل. منفرة! جد منفرة! مرض المهنة. فأنا حانوتي.

الربُ : الموت؟ أنت سعيد! أنت الربُّ الجديد. يؤمنون بك. ويحبونك. ويخافونك. إنك أنت الإله الأوحد. لا يستطيع أن يكذبك أحد! أو يراكم عليك أحماله! أجل. أنت سعيد. فأنت الربُّ الجديد. لا يفلت منك أحد. أنت هو الربُّ الجديد أيها الموت. ولكنك أصبحت ممتلئًا مكتنزا. ظننتك شيئًا مختلفًا تماما. ظننتك أهزل كثيرا وأبرز عظاما، ولكنك مكوّر ومكتنز الشحم وسعيد. فالموت القديم كان يبدو عليه دائما أنه مات

إلى الفهرس

من الجوع.

الموت : لقد أصبحت على شيء من الاكتناز في هذا القرن. فأحوالي طيبة وبـضاعتي رائجـة. والحروب يعقب بعضها البعض. كالـذباب! يتساقط الموتى كالذباب من على جدران هذا القرن. ويرقدون في تيبس على حافة نافـذة الزمان.

الربُ : ولكن التجشؤ؟ لِم هذا التجشؤ القبيح؟.

الموت : متخم.. متخم هذا هو كل مـا فـي الأمـر. ففي هذا الزمن لا يمكن لأحد أن يتخلـ ـص من التجشؤ. (يتجشأ) معذرة!.

الربُ : أبنائي.. أبنائي. ولا أقوى على تبديل شيء! أبنائي. (ينصرف).

الموت : هه! طاب مساؤك أيها العجوز. نـم قريـر العين. وحذار أن تقع أنت الآخر في المـاء. فقد سقط قبلك واحد فيه. احذر جيـدا أيهـا العجوز. إن الظلام يطبق على الدنيا.. يطبق عليها تماما. (يتجشأ) اذهب إلى دارك أيهـا

العجوز. فلن تبدل شيئًا. ولا تبك على ذلـك الذي أحدث منذ قليل بضع فقاعات في الماء. أو على صاحب المعطف الحربي ذي الشعر الشبيه بالفرشاة. أنت تهلك نفـسك بالبكـاء والواقفون هذا المساء على ضفـ ـة النهـر لم يعودوا عشاقًا أو شعراء وصاحبنا الـذي كان هناك منذ برهة لم يكن سـوى واحـد من أولئك الذين فقدوا الرغبة والرجاء. الذين خارت ببساطة قواهم. يذهبون في المـساء إلى الماء، ويلقون أنفسهم في صـمت بـأي بقعة منه. بلمب. انتهى. دعه. لا تولول أيها العجوز فأنت تهلك نفسك بالبكاء. لقد كـان مجرد واحد من أولئك الذين خارت قـواهم. واحد من الغالبية اليائسة.. مجرد واحد.

إلى الفهرس

الحلم

في أعماق نهر الألبيه. وقع رتيب لموجـات صغيرة. الألبيه. بيكمان.

بيكمان : أين أنا؟ يا إلهي، أين أنا في هذا المكان.

الألبيه : عندي..

بيكمان : عندك؟ و – ومن أنت إذن؟

الألبيه : من أنا.. أيها الفرخ الصغير ألم تقفز عنـد سان بولي من فوق العوامة في الماء؟

بيكمان : الألبيه؟

الألبيه : أجل.. الـ - الألبيه!

بيكمان : (بدهشة) أأنت هو نهر الألبيه؟

الألبيه : أجل. افتح عينيك الغريرتين جيـدا أو هـل خايلك اعتقاد بأني فتاة حالمة بشرتها شاحبة؟ من طراز أوفيليا [١] ذات الـشعر المرسـل

([1]) أوفيليا: بطلة مسرحيـة هاملت لشكـسبير. وهـي مثـال الفتـاة المستسلمة الوديعة.

إلى الفهرس

المرصع بالورود الطافية على وجه المـاء؟ خُيل إليك أنك ستظل بين أحضانها الـوثيرة تستمتع برائحتها الذكيـة. لا يا بني.. لقـد أخطأت، لست حالمـا ولا ذكـي الرائحـة؛ فالنهر الحقيقي تفوح منه رائحـة كريهـة. أجل.. رائحة الزيت والسمك.. مـاذا تريـد هنا؟

بيكمان : أن أنام. لم أعد أطيق الحياة فوق.. هنـاك. لن أعود إليها.. أريد أن أنـام. أن أمـوت. أن أموت حياتي بطولها. وأنا. أنـام أخيـرا في سلام. أنام عشرة آلاف ليلة.

الألبيه : تريد أن تهرب، أيها الأبله المغرور، ألـيس كذلك؟ خُيل إليـك أنتـك لـم تعـد قـادرا على مواجهة الحياة. (هم)؟ فوق.. هنـاك. أليس كذلك؟ لقد صوَّر لك غـرورك أنـك عشت بما فيه الكفاية. أنت أيها الطفل، كـم عمرك إذن أيها الناشئ الجبان؟

بيكمان : خمس وعشرون. والآن أريد أن أنام.

إلى الفهرس

الألبيه : انظر.. خمس وعشرون ويريـد أن يحـرق بالنوم ما تبقـى من حياته. خمس وعشرون ويقفز في الماء تحت جناح الليـل المـشبع بالضباب لمجرّد أن قواه قد خارت. لم تعـد تحتمل. ماذا؟ تكلـم أيها الكهل العجوز؟

بيكمان : كل شيء.. لم أعد أحتمـل شـيئًا. فـوق.. هناك. لم أحتمل الجوع. لـم أعـد أحتمـل أن أذرع الطرقات بساقي الواحدة وأقف أمام مخدعي ثُم أعـود لأتـشرّد مـن جديـد؛ لأن مضجعي مشغول. الـساق، الـسرير، الخبز. لم أعد أحتمل شيئًا من هذا. أتفهم!

الألبيه : لا أيهـا المنتحـر الغريـر. لا. أتـسمع؟! أم لأن امرأتك لم تعد راغبة في اللعب معك، ولأنك تعرج بـساق واحـدة. ولأن بطنـك يزمجر. أمن أجل هذا – تستطيع أن تلـوذ بي فرارا؟ هكذا.. تقفز ببساطة في المـاء؟ اسمع! لو حاول كل الجـائعين أن يغرقـوا أنفسهم لأصبحت الأرض الطيبـة خاويـة

كرأس حمـال أصـلع. لا.. هـذا هـراء يا بني. لن تجدي معي مثل هـذه الوسـائل الهروبيـة. يجب أن ترحل عني. فقد كـان يجب أن تُضرب على أردافك كمـا يعاقَـب الأطفال. ولو كان قد مـضى عليـك سـت سنوات في الميدان. من لم يكن مثالك كلهـم يعرج هنا وهناك. ابحث عن مضجع آخر.. إذا كان مخدعك مشغولاً. لست أريد حياتـك الفجـة اليائسة. فأنت لا تشبعني يـا بنـي. لتقل لك امرأة عجوز.. اعرك الحيـاة أولاً. فلتقدم.. ولتقدم ثانية حتى إذا ما طفـح بـك الكيل.. واستبد بك شلل خطير وأصبح قلبك يزحف على أربع. في هذه الحالـة يمكننـا أن نتفاهم من جديد. أما الآن فـلا ترتكـب حماقة. أفهمت؟ والآن ارحل عن هذا المكان يا عزيزي الصغير؛ فحياتك التي تحتويهـا قبضتك الصغيرة لا تكفيني على الإطـلاق. احتفظ بها. فلست أريـدها.. أيهـا الناشـئ

الصغير.. لا تجادل! أيها الإنـسان الطفـل! أريد أن أهمس في أذنك بـشيء.. اقتـرب: (إني أبول على انتحارك!) أنت أيها الرضيع انتبه لما أفعله معك. (يعلو صـوته). هيـا يا شباب.. ألقوا بهذا الصغير علـى رمـال شاطئ بلانكنزيه! فقد وعدني بـأن يحـاول مرة أخرى. ولكن بلطف فهو يقول إن ساقه تؤلمه، ذلك الطفل الغر.

المشهد الأول

الليل. بلانكنزيه (بلاج بالقرب من هامبورج). صوت الريح وهي تحرك الماء. بيكمان. الآخر.

بيكمان : من هناك؟ في منتصف الليل. على ضفـــة النهر. هه! من هناك؟.

الآخر: : أنا

بيكمان : شكرا.. ومن يكون هذا الأنا؟.

الآخر : أنا هو الآخر.

بيكمان : الآخر! أي آخر؟.

الآخر : الذي كان بالأمس. ومنذ الأيـام الخـوالي. الآخر الموجود دائما. الـذي يقـول نعـم. المجيب.

بيكمان : منذ الأيام الخوالي؟ الموجود دائمـا؟ أأنـت الآخـر علـى القمطـر فـي المدرسـة؟ وفي القطار؟ وبئر السلم؟

الآخر : وفي عاصفة الثلج التي هبت في سمولنسك.

إلى الفهرس

وفي مخبأ بلدة جورودوك.

بيكمان : أكنت أنت الآخر في ستالينجراد.

الآخر : أجل كنت. والآخر هذا المساء وغدا أيضا.

بيكمان : غدا. لا وجود للغد. الغد من دونك. ارحـل من هنا. لست أجد لك وجها.

الآخر : لن تفلت مني. أنا الآخر الماثل دائما: غـدا وفي كل يوم. وفي المخـدع عنـدما يحـل المساء.

بيكمان : ارحل عني فليس لي مخـدع. أرقـد هنـا في الوحل.

الآخر : أنا الآخر في الوحل. الماثل دائما لن تفلـت مني.

بيكمان : لست أجد لك وجها. ارحل عني.

الآخر : لن تفلت مني. فلي ألف وجه. أنا الـصوت الذي يعرفه الجميع. أنا الآخر الماثل دائمـا. المجيب. الذي يضحك حين تبكـي. الـذي ينشط حين يستبدُ بك التعب. أنا هو المستتر

الذي يدفع ويتعب. أنا هـو المتفائـل. أرى الجوانب الطيبة في الـشريرين، وأضـيء السبيل في الظلمة الحالكـة. أنـا المـؤمن الضاحك المحبُ! أنا هـو الـذي يمـضي على الدرب ولو سار بساق واحـدة. أقـول "نعم" حين تقول أنت "لا". أنا هو القائل نعـم وأنا...

بيكمان : (مقاطعا) قل "نعم" بالقدر الذي تشاء. اذهب عني لست أريـدك. أقـول لا.. لا. اذهـب عني. أقول لا. ألا تسمع؟.

الآخر : أجل أسمع. ومن أجل هذا أبقى هنا. ومـن أنت أيها القائل لا؟

بيكمان : أُدعـى بيكمان.

الآخر : أليس لك اسم ميلاد أيها القائل لا؟.

بيكمان : لا. منذ الأمس وأنا لا أُدعى سوى بيكمـان ببساطة بيكمان. كما تُدعى المائدة مائدة.

الآخر : ومن يدعوك مائدة؟.

بيكمان : زوجتي. لا. تلك التـي كانـت زوجتـي.

فقد غبت أعواما ثلاثة في روسيا. وبالأمس عدت إلى داري. وهنا حدثت المأساة. أتعلم أن ثلاث سنوات وقت طويل. بيكمان هكـذا دعتني زوجتي. بيكمان بكل بـساطة. بعـد غيبة ثلاثة أعوام. قالت بيكمان كما تـدعو المائدة مائدة. قطعة الأثاث بيكمان. أخرجوه، ذلك المقعد بيكمان أترى؟ من أجل هذا فقدت اسم ميلادي. فهمت؟.

الآخر : والآن لِـم ترقـد هكـذا علـى الرمـال؟ في منتصف الليل؟ على ضفـة النهر؟.

بيكمان : لأني لا أستطيع النهوض. فقد أحضرت معي ساقًا يابسة. كذكرى طيبة مثـل الـذكريات وإلا فسرعان ما سننسى الحرب. وهذا هـو ما لا أريد. بالتأكيد. فقد كان كل هذا أجمـل من أن ننساه. يا قوم ألم يكن هذا جميلاً؟

الآخر : أمن أجل هـذا ترقـد هنـا فـي المـساء. على ضفـة النهر!.

بيكمان : لقد سقطت.

الآخر : ماذا تقول؟ سقطت في الماء.

بيكمان : لا.. لا.. ألا تسمع؟ أردت أن أسقط نفـسي فيه عن عمد؛ إذ لم أعد أطيق الحياة. هـذا العرج.. ثُم ما حدث مع المرأة التي كانـت زوجتي. قالت لي بيكمان بنفس البساطة التي تدعو بها المائدة مائدة. والآخر الذي كـان معها ضحك بوقاحة. ثُم تلك الأنقاض وتلـك الفـضلات التـي تخلـفت هنـا. هنـا في هامبورج. حيث يرقد ولدي في مكان ما. قليل من الطين والجير والوحل. طين آدمي، وجير عظام. لـم يتجـاوز عامـه الأول، ولم أكن قد رأيته بعـد. أمـا الآن فـأراه في كل مساء تحت العـشرة آلاف حجـر. فضلات، مجرد فضلات ليس أكثر. قلت في نفسي:

لا سبيل لي إلـى احتمـال ذلـك. وأردت أن ألقي نفسي في النهر. فقد اعتقدت أنهـا عملية سهلة للغايـة؛ مـن علـى العوامـة

إلى أسفل (بلمب). انتهى.

الآخر : (بلمب)؟ انتهى؟ كنت تحلم، فما زلـت هنـا على الرمال.

بيكمان : كنت أحلم؟ أجل من الجـوع. لقـد لفظنـي إلى الـشاطئ مـن جديـد. الألبيـه، هـذا الـ... العجوز. لم يردنـي. قـال: علـيَّ أن أحاول مرة أخـرى. فلـيس الانتحـار من حقي. قال إنني ما زلت حـديث العهـد بالحياة، وإنه (يبول) على ذلك القدر الضئيل الذي خبرت منها. هكذا همس في أذني ذلك الـ.. المعلون.. قال لي كل ذلـك بـصوته الأجش. قال إن الحياة جميلة، بينما أرقد هنا بملابسي المبللة علـى رمـال بلانكنزيـه. وأرتعد من البرد. عانيت البـرودة طـويلاً في روسيا. فقد ارتعدت من البرد بمـا فيـه الكفاية. وهذا الألبيه. هذا العجوز اللعـين.. أجل كنت أحلم من الجوع.. ماذا هناك؟

الآخر : شخص قادم. شيء كالفتاة. إنها تقترب.

الفتاة : هل يوجد أحد هنا؟ لقد تحدَّث أحد منذ برهة.

بيكمان : أجل.. أرقد هنا. هنا على الأرض بجـوار الماء.

الفتاة : ماذا تفعل هنا؟ ولِم لا تنهض؟

بيكمان : أني راقد هنا كما ترين. نصفي على الأرض ونصفي الآخر في الماء.

الفتاة : لِمَ إذن؟ فلتنهض. لقد اعتقدت أن ميتًا يرقـد في هذا المكان. إذ وقعت عيناي على هـذا الكوم المعتم بجانب الماء.

بيكمان : أجل.. صدقت. هذا الكوم معتم للغاية..

الفتاة : ولكني أرى أنك تتحـدَّث بطريقـة غريبـة للغاية. صادفت الآن كثيرا مـن الأمـوات الراقدين على ضفـة النهـر.. وأحيانًـا منتفخين مبللين.. بياضهم شاحب كالأشباح.. حتى كنت أنتفض من الذعر. أحمد الله أنـك ما زلت على قيد الحياة.. ولكنك لن تلبـث أن تبتل على وضعك هذا.

بيكمان : بل أنا بالفعل كذلك. مبتـل وبـارد كجثـة حقيقيـة.

الفتاة : فلتنهض واقفًا إذن. أو هل جرحت نفسك؟

بيكمان : أجل. لقد سلبوني ركبتي في روسـيا. والآن عليّ أن أعرج في الحياة بـساق متيبـسة. ويستولي عليّ اعتقـاد دائـم بأننـا نـسير إلى الوراء ولا نتقـدّم. لا يمكـن التحـدُّث في مسألة النهوض هذه.

الفتاة : بل تعالَ، فسآخذ بيدك، وإلا أصبحت بمرور الوقت سمكة.

بيكمان : يمكننا أن نحاول، إذا كنت ترين أننا لن نعود إلى الوراء. هكذا. شكرا.

الفتاة : أترى.. ها نحن نتقدّم. ولكنك مبتل وبـارد لو لم أعبر بـك لـسرعان مـا تحـوّلـت إلى سمكة. أنت أبكم أيضا أيمكن أن أقـول لك كلمة؟ إنـي أقطـن قريبـا مـن هنـا. وفي الدار سنجد ملابس جافة. هـل تـأتي معي؟ أو يمنعك كبريـاؤك مـن أن تـشعر

عندي بالدفء؟ أنت أيها النصف سمكة، أيها السمكة المبتلة البكماء؟

بيكمان : تريدين أن أصحبك؟

الفتاة : أجل.. إذا أردت. لكن لمجرَّد أنـك مبتـل. أرجو أن تكون في غاية القـبح والتواضـع حتى لا أندم على أني أصطحبتك. أصطحبك لمجرَّد أنك مبتل وبارد. مفهوم! ولأن.

بيكمان : (مقاطعـا) لأن؟ لأن مـاذا؟. لا.. لمجـرَّد أني مبتل وبارد.. لا شيء خلاف ذلك.

الفتاة : بل هنالك ما هو خلاف ذلـك؛ لأن نبـرات صوتك مفعمة باليأس والأسـى. مـا هـذا الهراء؟ تعالَ أيها السمكة المبتلة البكماء.

بيكمان : توقـ ـفي! إنـك تـسرعين بـي، فـساقي لا تلاحقك. أبطئي بنا.

الفتاة : نعم.. بطيئًا هكذا، كسمكتين مبللتين باردتين، عجوزين في عمر التلال القديمة.

الآخر : لقد ذهبا. هـذا هـو حـال ذوي الـساقين. ما أعجب شأن أولئك الناس الذين يعيـشون

على سطح الأرض. فـي البدايـة يلقـون بأنفسهم في الماء ويتلهـفون علـى الفنـاء. ثُم يمرُ في الظلام ذو ساقين آخر، بمحـض الصدفة. ذو نهدين وشعر مـسترسل، فـإذا بالحياة تتبدَل غاية في الروعـة والعذوبـة. ولا نجد إنسانًا يبحث عن الموت. بل إنهـم يريدون أبدا ألا يموتوا. من أجل هذا الشعر المسترسل والبشرة البيضاء وبعض رائحـة النساء! وإذا بهم ينهضون من سرير الموت، ويصبحون في صحة عـشرة آلاف ظبـي في موسم إخصابها، وتدبُ الحياة في جديـد حتى في أنصاف الجثث المائيـة. هي نفسها التي لم تطق الحيـاة علـى ظهـر الكـرة الأرضيـة، الملعونة الخاوية، البائسة. وتدب الحركة في الجثث المائية من جديد – كـل ذلك من أجـل بـضع عيـون، أو بعـض التعاطف الدافئ الرقيق، ومن أجل الأيـدي البضـة الصغيرة وعنـق فـارع الطـول.

هذه هي الجثث المائيـة ذوات الساقين. هذا هو حال الناس على ظهر الأرض. أمـرهم غريب. جدٌّ غريب.

المشهد الثاني

الليل. حجرة. باب يصر ويغلق.

بيكمان. الفتاة.

الفتاة : والآن أريد أن أرى تحت المصباح الـسمكة التي اصطدتها من الماء. ما هذا؟

(تضحك) قل لي بالله ما هذا؟

بيكمان : هذا؟ هذا هو منظاري. أجل فأنت تضحكين. هذا هو منظاري للأسف.

الفتاة : وتسمـيه منظارا؟ أعتقـد أنـك متعمـد أن تبدو مثيرا للضحك.

بيكمان : أجل.. منظاري. أنت على حق. فربما بـدا مثيرا للضحك. بهذا الإطار الرمادي المعدني المحيط بالزجاج، وبتلك الأشرطة الرماديـة التي يجب تثبيتها حول الأذنين. ثُـم بهـذا الشريط الرمادي الذي يعلو الأنف.

إنها تخلع على الوجه زيا حربيا. حتى ليبدو كأنه وجه رجل آلي. فهو بالفعـل منظـار

إلى الفهرس

كمامة.

الفتاة : منظار كمامة؟

بيكمان : نعم.. منظار كمامة. كان يسلـم إلى الجنود الذين يستعملون منظارات طبيـة؛ حتـى ييسر لهم الرؤية من تحت الكمامة.

الفتاة : ولكن لماذا تسير به حتـى الآن؟ ألا تملـك منظارا أفضل؟

بيكمان : لا كنـت أمتلـك منظـارا ولكنـه تحطـم في الميدان، وليس هذا المنظـار علـى ذرة من الأناقة. ولكني سعيد على الأقل إذ أمتلكه إنه شديد القبح. أعلم هذا بل أحيانًا أضطرب حينما يسخر مني الآخرون. ولكن يـستوي ذلك عندي في النهاية. فلست أستطيع التخلي عنـه.. وبـدون منظـار أصـبح ضـائعا بلا معين. بالفعل.. ضائعا تماما

الفتاة : أحقًـا، بدونـه تـصبح ضـائعا تمامـا؟ (بلهجة حانية) إذن أسـرع وأعطنـي هـذا الشيء القبيح، هكذا – ما قولك الآن!. لا. –

لن تسترده إلا عنـد رحيلـك مـن هنـا. كما أني أحسُ بارتيـاح كبيـر حـين أراك ضائعا تماما. بارتياح كبير. ثُم إنك بـدون المنظار تبدو على صورة مختلفـة تمامـا. أعتقد أنك تبعث في النفس انطباعـا قلقًـا. إذ عليك أن تنظر دوما مـن خـلال هـذا المنظار الحربي المخيف.

بيكمان : أرى الآن كل شيء مختلطًا تماما. أعيديـه إلي. لم أعد أرى شيئًا. حتى أنت أصـبحت بعيــدة جــدا. غيــر واضــحة المعــالم على الإطلاق.

الفتاة : شـيء رائـع. لـشد مـا يناسـبني هـذا، من الأفضل أن تظل هكـذا. فأنـت تبـدو بالمنظار كشبح مخيف.

بيكمان : ربما كنت عفريتًا أيضا، واحد من الأمـس أصبح اليوم لا يريد أن يرى أحدا، عفريـت عائد من الحرب. رمـم مؤقـتًا من أجـل السلام.

الفتاة : (بصوت دافئ حنون) وأي عفريت غـامض متشائم! أعتقد أنك تحمل أيضا في أعماقـك منظارا حربيا أنت أيها النصف سمكة. اترك لي المنظار فمن الأفضل أن تقـضي ليلـة واحدة دون أن ترى كل شـيء بوضـوح. هل تناسبك السراويل؟ حقًا أنهـا مناسـبة. خذ، أمسك هذه السترة.

بيكمان : أراك تبدئين بانتشالي من الماء، كي لا تلبثي أن تغرقيني. هذه السترة لرجـل رياضـي. تراك سرقتها من أي عملاق؟

الفتاة : العملاق هو زوجي. كان زوجي.

بيكمان : زوجك؟

الفتاة : أجل. أو اعتقدت أني أتجـر فـي ملابـس الرجال؟

بيكمان : أين هو.. زوجك؟

الفتاة : (بمرارة وصوت خفيض) مات من الجـوع أو البرد، أو تخلـف هناك، ماذا أدرانـي. مفقود منذ واقعة ستالينجراد. كان ذلك منـذ

ثلاثة أعوام.

بيكمان : (بِحيرَة) في ستالينجراد؟ حقًا في ستالينجراد تخلـف البعض. ولكن البعض الآخر يعود. وهؤلاء يرتدون ملابس الذين لا يعـودون. الرجل الذي كان زوجك، العملاق صـاحب هذه الملابس، تخلـف هناك.. وأنا.. وأنـا آتي هنا لأرتدي ملابسه. شيء جميل.. أليس كذلك؟ أليس هذا جميلاً! وسترته كـم هـي رحبة حتى لأكاد أن أغرق فيها. (بانفعـال) لا بدَ وأن أخلعها فهذه السترة تبتلعني. إنهـا تخنقني. أبدو أضحوكة في هـذه الـسترة. أضحوكة مرعبة شائنة، من صنع الحـرب. لم أعد أرغب في ارتدائها.

الفتاة : (بحرارة ويأس) اهدأ أيها السمكة. أرجـوك أن تحتفظ بها. فأنت تروق لي هكـذا أيهـا السمكة. على الرغم من قَصة شعرك بهـذه الطريقة الغريبة. يبدو أنك استحضرتها معك من روسيا. (هم!) مـع المنظـار والـساق

وشعرك القصير الشبيه بالفرشاة. أتـرى.. هذا هو ما دار في ذهني.. أرجو ألا تعتقـد أني أسخر منك أيها السمكة. لا أيها السمكة. فأنا لا أفعل هذا. أنت تبدو على هذه الهيئـة رائع الحزن. أنت أيها العفريت الرمـادي. داخل السترة المتسعة وبشعر رأسك، وساقك اليابسة، لا تعبأ. فلست أرى في هذا ما يثير الضحك. لا أيها السمكة. إنك تبـدو رائـع الحـزن فقـد أذرف الـدموع إذا نظـرت إليّ بعينيك القلقتين. أنت لا تقول شيئًا. قـل شيئًا أيها السمكة. قل شـيئًا. أرجـوك. أي شيء. ليس من الضروري أن يكون كلامـا معقولاً. ولكن قل شـيئًا. أي شـيء. هـذا الصمت المرعب الذي يحيط بنا في العـالم. قل شيئًا، حتى لا أحسّ بالوحـدة أرجـوك. افتح فمك، أيها الإنسان الـسمكة. لا تظـل هكذا واقفًا طول الليل. تعال. اجلـس هنـا إلى جانبي. لا تبتعد هكذا.. أيهـا الـسمكة

يمكنك أن تقترب مني أكثر من ذلك. لا شكَ أنك ما زلت تراني غير واضـحة المعـالم. بل تعال. أغلق عينيك من أجلي. اقترب وقل شيئًا، حتى أشعر أن أحدا بجانبي. ألا تحسُ بهذا السكون المخيف؟

بيكمان : (باضطراب) يطيب لي أن أراك. أجل أنت. ولكني في كـل خطـوة أخـاف أن أعـود إلى الوراء. هذا هو ما أخاف.

الفتاة : آه منك. إلى الأمام، إلـى الـوراء، فـوق، تحت. ربما نرقد غدا فـي المـاء شـاحبين منتفخين. تلفـنا البرودة والـصمت الـذي لا يحمل معنى. أمـا اليوم فما زالت تجري الحرارة في أوصالنا. ما زلنـا فـي هـذا المساء. أنت أيها السمكة، قـل شـيئًا أيهـا السمكة. لن تعوم الليلة بعيدا عني. فلتظـل ساكنًا. لست أصدق حرفًا مما تقول. ولكـن الباب.. أريد أن أغلقه، فذلك أفضل.

بيكمان : عنكِ من هذا الهراء. فلست سمكة، ولـيس

من داعٍ لأن تغلقي الباب لا. أنا – يعلم الله– لست سمكة.

الفتاة : (بحرارة) سمكة! سمكة! أنت أيهـا الـشبح المرمم المبتل.

بيكمان : (فاقد الانتباه) كما لو كـان شـيء يـضغط على أنفاسي. إني أغرق. إني أختنق. وكـل ذلك؛ لأني ضعيف البصر، أينمـا وجهـت عيني لا أرى سوى ضباب ولكني أختنق.

الفتاة : (في قلق) ماذا بك؟ أنت.. ماذا بك؟.

بيكمان : (بقلق متزايد) الآن أكـاد أن أفقـد عقلـي. أعطني منظاري. أسرعي. فإني بدونه أرى الدُنيا ضـبابا أمـامي. عنـدك! يـستولي عليّ شعور بأن رجلاً يقف طـول الوقـت وراءك! رجـل فـارع مـن ذلـك النـوع الرياضي. عملاق.. أتعرفين. ولكـن ذلـك يرجع إلى أني لا أحمل منظاري. فـالعملاق ذو ساق واحدة وهو يقترب دائمـا، بـساق واحدة وعكازين. أتسمعين. تك. توك. تـك.

تتوك هذا هو وقع العكـازين. والآن هـو ذا يقف وراءك. أتحسين بزفيره على عنقـك. أعطني المنظار. لا أريـد أن أراه. هـو ذا يقف ملتصقًا بظهرك.

الفتاة : (تصرخ وتنـدفع خارجـة. البـاب يرتـد بصرير. وهنا يسمع وقع العكازين تتك تتوك عالية جدا).

بيكمان : (يهمس) العملاق!

ذو الساق الواحدة: (بصوت غير معبر) ماذا تفعل هنا؟ أنـت؟ في ردائي!! في مكاني؟ مع زوجتي؟.

بيكمان : (كالمشلول) ملابسك؟ مكانك؟ زوجتك؟.

ذو الساق الواحدة: (بنفس اللهجة الخالية من الانفعال) وأنـت.. ماذا تفعل هنا؟.

بيكمان : (بصوت خفيض متقطع) كان هذا هو نفـس السؤال الذي وجهته بالأمس إلى الرجل الذي كان مع زوجتي. في قميصي. في مخدعي. سألته: ماذا تفعل هنا؟ فرفع كتفيه وأعادهما إلى ما كانا عليه ثُمَّ قال: أجل مـاذا أفعـل.

كان هذا هو الجواب. عندئذ أغلقـت بـاب حجرة النوم مرّة أخرى. لا – أطفأت النور أولاً كما كان من قبل. ووقفت في الخارج.

ذو الساق الواحدة : تعال. قف بوجهك تحت المصباح. اقتـرب. (هامسا) بيكمان!.

بيكمان : أجل أنا هو بيكمان. اعتقدت أنك لن تعرفني.

ذو الساق الواحدة : (بصوت خفيض – يغلـب عليـه التأنيـب) بيكمان.. بيكمان.. بيكمان..!

بيكمان : (معذبا) كفى.. لا تذكر هذا الاسم. لم أعـد أريد هذا الاسم! كفى!.

ذو الساق الواحدة : (يردد) بيكمان.. بيكمان.

بيكمان : (يصرخ) ليس هذا اسمي! لست أريده! لست أريد أن أكون بيكمان! (يعدو خارجا. بـاب يصرُ ثُمّ يغلَق ويسمع صوت الريح وشخص يعدو خلال الشوارع الساكنة).

الآخر : قف يا بيكمان!.

بيكمان : من أنت؟

إلى الفهرس

الآخر : أنا هو الآخر.

بيكمان : ألا تلبث أن تعود؟.

الآخر : على الدوام يا بيكمان. على الدوام.

بيكمان : ماذا تريد؟ دعني اذهب.

الآخر : لا يا بيكمان. فهذا الطريق يؤدي إلى النهر، تعال فطريقك يصعد من هنا.

بيكمان : دعني أذهب. أريد أن أذهب إلى نهر الألبيه.

الآخر : لا يا بيكمان. تعال. أنت تريـد أن تـستمرَ في هذا الطريق الصاعد.

بيكمان : أنا أستمرُ في الطريق! هل أعيش؟ سأستمرُ؟ آكل، وأنام، وكل شيء؟

الآخر : تعال يا بيكمان.

بيكمان : (دون أي حماسة) لا تذكر هذا الاسم. لست أريد أن أكون بيكمان. لم يعـد لـي اسـم. سأستمرُ في الحياة، حيث يوجد إنسان، حيث يوجد رجل بساق واحدة. ليس له سواها وأنا السبب في هذا. ليس له سوى ساق واحـدة؛

لأنه أعطى الآخر لضابط الصف بيكمـان. الذي كان يقـول: أيهـا الجـاويش لا بـدّ أن تحتفظ بموقعك حتى النهاية. سوف أعيش حيث يوجد ذو الساق الواحدة، الذي يقـول دائما بيكمان! بيكمان بدون توقف! بيكمـان دائما! وهو يقولها كما لو كان يقـول "قبـر" أو كما لو كان يقول: قاتل أو كلـب. الـذي ينطق اسمي مثلما يقـول انحـلال العـالم! أو مستنقع! الذي يهمس به في تهديد ويأس. وأنت تقـول إنـي سـأعيش! أنـا أقـف في الخارج. مرة أخرى في الخارج. في ليلة البارحة وقفت في الخـارج. واليـوم أقـف في الخارج. دائمـا أقـف فـي الخـارج. والأبواب دوني موصدة. وأنـا إنـسان ذو سيقان ثقيلة متعبة. وبطن يزمجر بـالجوع. ودمي يتجمد هنا في الخارج وسـط الليـل. وذو الساق الواحدة لا يكف عن ذكر اسمي. وفي الليل لا أستطيع أن أنـام. إلـى أيـن

إلى الفهرس

المطاف إذن؟ دعني. دعني. أذهب!

الآخر : تعال يا بيكمان. فلنستمر في طريقنا. نريـد أن نزور شخصا. سنعيدها إليه.

بيكمان : نعيد ماذا؟

الآخر : المسئوليـة.

بيكمان : نريد أن نزور شخصا؟ أجـل نريـد هـذا. والمسئولية أعيدها إليـه! أجـل هـذا هـو ما نريد. أريد أن أنام ليلة واحدة. بدون ذي الساق الواحدة. سأعيدها إليه. أجل سـأعيد إليه المسئوليـة. سأعيد إليه المـوتى. إليـه أجل تعال. نريد أن نزور رجلاً يقطـن دارا دافئة. في هذه المدينة. في كل مدينة. نريـد أن نهديه شـيئًا – رجـلاً رحيمـا، طيبـا، شجاعا، لم يفعل طوال حياته سوى واجبـه، ودائما الواجب فقط! ولكنه كان واجبا مخيفًا. كان واجبا مرعبا! واجبا ملعونًا.. ملعونًـا.. ملعونًا..! تعال. تعال!

المشهد الثالث

حجرة – الدنيا ليل – باب يصر ثُم يغلق – ضابط برتبة كولونيل وعائلة بيكمان.

بيكمان : شهية طيبة سيدي الكولونيل.

الكولونيل : (يمضغ الطعام) ماذا؟

بيكمان : شهية طيبة سيدي الكولونيل.

الكولونيل : أنت تقاطعني أثناء العـشاء! هـل مهمتـك خطيرة بهذه الدرجة؟

بيكمان : أبدا.. أردت أن أقرر هذا المساء إذا كنـت أغرق نفسي أو أعيش. حتى إذا ما ظللـت على وجه الحياة فما زلت لا أعرف كيـف سيحدث ذلك ثُم إني ربما شـعرت بـالجوع أحيانًا أثناء النهار، وفي المساء أريد أن أنام، ولا شيء أكثر من ذلك

الكولونيل : لا. لا. لا. لا تتحدَث بهذه الطريقة الهمجية. كنت جنديا بالتأكيد. أليس كذلك؟

بيكمان : لا ياسيدي الكولونيل.

إلى الفهرس

زوجة ابنة الكولونيل : كيف لا وأنت ترتدي زيا عسكريا.

بيكمان : (بعدم اكتراث) أجل. ست سـنوات. لكنـي اعتقدت دائما أني حتـى لـو ارتـديت زي ساعي بريد عشر سنوات فلن يعني هذا أني أصبحت فعلاً ساعي بريد.

الابنة : بابي. اسأله ماذا يريد؟. إنه يبحلـق طـول الوقت في طبقي.

بيكمان : (في تودُّد) نوافذك تبدو من الخارج دافئـة. لذا أردت أن أجرب كيـف يكـون النظـر من خـلال النوافـذ. لكـن مـن الـداخل، من الداخل. أتدري أثر ذلك في النفس حـين تبدو مثل هذه النوافذ وسط الليـل مـضيئة دافئة، بينما يقف المرء في العراء.

الأم : (وقد استولى عليها الخـوف) بابـا... قـل له أن يخلع المنظار. إني أرتعد حـين أرى هذا.

الكولونيل : هذا هو ما يدعى يا حبيبتي منظار الكمامة.

فقد تقرَر في القوات المسلحة عـام ١٩٣٤ كمنظار يستعمله الجنود ضعاف النظر تحت القناع المعدني الذي يحمي الوجه. لم لا تلقي به؟ لقد انتهت الحرب.

بيكمان : أجل. أجل؟ انتهت. كلكم يقول هذا. ولكنـي لا زلت أحتاج إلى المنظار. لأنـي قـصير النظر. وبدون منظار أرى الأشياء مختلطـة غير واضحة. ولكني الآن أسـتطيع أن أرى كل شيء. فمن هنا أرى جيدا كـل شـيء على مائدتكم.

الكولونيل : (يقاطعه) قل لي أي حلاقة غريبة هذه؟ هـل اغتصبت شيئًا... هه؟ اعترف. أليس كذلك؟ أعني اقتحمت مكانًا ما وضبطت. "هه"؟؟

بيكمان : حقًا سـيدي الكولونيـل. اقتحمـت مكانًـا ما في ستالينجراد سيدي الكولونيـل ولكـن الخطة لم تنجح. وضبطنا وحكِم علينا بثلاثة أعوام. جميعنا المائة ألف رجل. وقائدنا كان يرتدي الملابس المدنية ويأكل الكافيار ثلاث

سنوات، والآخرون كانوا يرقـدون تحـت الجليد والرمال في أفواههم، أما نحن فكنـا نغترف الماء الساخن ولكـن القائـد لا بـدّ وأن يأكل كافيارا، ثـلاث سـنوات كاملـة. وحلقوا لنا شعورنا حتـى بـدا كـل منـا كالأصلع. وأسـعدنا كـانوا ذوي الـرءوس المبتورة؛ فعلى الأقل لـم يكونـوا بحاجـة إلى أن يقدموا الكافيار!

زوج ابنـة الكولونيل : (في ضيق) ما رأيك في هذا يا عمـي؟ مـا رأيك في هذا؟

الكولونيل : ربما كنت تستعرض الأمر كله بطريقة جـد محرَفة. نحن بالطبع ألمان. ومن الأفـضل لنا أن نظل متمسكين بحقيقتنـا الألمانيـة الطيبـة. وكمـا يقـول كلاوزيفتش أبو الاستراتيجية البروسية من يرفـع رايـة الحق إلى أعلى يـسير دائمـا علـى خيـر ما يرام.

بيكمان : حقًا.. سيدي الكولونيل. هذا جميـل سـيدي

الكولونيل. إنني موافق. موافق علـى اتبـاع الحق. فنحن نأكل حتى نشبع حقًـا سـيدي الكولونيل. نشبع حقًا! ونرتدي قميصا جديدا. وحلة بها أزرار وخالية من الثقوب. ثُم نوقد المدفأة. فنحن نملك مدفأة سيدي الكولونيـل، ونضع عليها إبريق الشاي لنصنع مـشروبنا الساخن، ونغلـق النوافـذ ونلقـي بأنفـسنا على المقاعد الوثيرة، فنحن نملـك مقاعـد وثيرة بالطبع! ونشمُ الروائح الطيبة المنبعثة من زوجاتنا. ولا دماء. أليس كذلك سـيدي الكولونيل. ونفرح بالسرير النظيـف الـذي نملكه نحن الاثنين سيدي الكولونيل. والـذي ينتظرنا في غرفة النوم. ناعمـا، أبـيض، دافئًا، ثُم بعـد ذلـك نرفـع علـم الحقيقـة إلى أعلى. حقيقتنا الألمانيـة الطيبة، سيدي الكولونيل.

الابنة : إنه مجنون.

زوج الابنة : مجنون.. كيف إذن؟ إنه مخمور.

الأم : أبي. ضع حدا لهذا. فأنا أرتعد من هذا الرجل.

الكولونيل : (في غير حدَّة) عندي إحساس أكيد أنك أحد أولئك الذين ذهبت الحرب بعقولهم. لِمَ لَمْ تصبح ضابطًا؟ إذن لأمكنك أن تغشى أوساطًا مختلفة تماما. لكان لك زوجة تُعنَى بأمرك ولأصبح لك الآن بيت مريح. لكنت الآن شخصا آخر بالفعل. لِمَ لَمْ تصبح ضابطًا؟

بيكمان : كان صوتي خافتًا جدا، سيدي الكولونيل، كان صوتي ضعيفًا للغاية.

الكولونيل : أترى، صوتك خافت جدا. بصراحة أنت من أولئك المتعبين الضعفاء. أليس كذلك؟

بيكمان : أجل سيدي الكولونيل، هذا هو الواقع. ضعيف الصوت، ضعيف البنية، ومتعب، سيدي الكولونيل، متعب، متعب، متعب! لا أستطيع النوم سيدي الكولونيل ولا ليلة واحدة، سيدي الكولونيل من أجل هذا أجيء

هنا، من أجل هذا أجيء هنا إليـك، سـيدي الكولونيل؛ إذ أعرف أنك قادر على معاونتي أريد في النهاية أن أرى النوم مرة أخـرى! لست أريد أكثر من ذلـك. فقـط أن أنـام، أن أغط في نوم عميق.

الأم : بابي لا تتركنا. أحـسُّ بـالخوف. أرتعـد من هذا الشخص.

الابنة : هراء يا أماه. إنه واحد من أولئـك الـذين يعودون من الحرب بلوثـة إلـى وطـنهم ولا يقومون بأي عمل.

زوج الابنة : أرى أنه شديد الصلف، صاحبنا هذا.

الكولونيل : (بروية) دعوه لي يا أبنائي. فـإن خبرتـي العسكريـة علمتني كيف يعامل هذا النـوع من الناس.

الام : يا إلهي.. إنه ينام وهو واقف.

الكولونيل : (في أبوة) يجب أن يعامل بشدَة. هذا هو كل ما في الأمر.

بيكمان : (يبتعد عنه) سيدي الكولونيل.

الكولونيل : ماذا تريد؟

بيكمان : (من بعيد جدا) سيدي الكولونيل.

بيكمان : (يغلب عليه النوم، ويحلم) فلتسمع سيدي الكولونيل، جميل أن تسمع، سيدي الكولونيل. أريد أن أقصَّ عليك حلمي، سيدي الكولونيل. الحلم الذي يراودني كل ليلة. ثُم أستيقظ لأن شخصا مخيفًا يصرخ. أتعلم من هو ذلك الذي يصرخ؟ إنه أنا، سيدي الكولونيل، أنا نفسي. شيء مضحك حقًا. ثُم لا أستطيع العودة إلى النوم بعد ذلك. ولا ليلة واحدة، سيدي الكولونيل. تصوَّر سيدي الكولونيل، أظل يقظًا كل ليلة؛ لذلك تجدني متعبا سيدي الكولونيل. متعبا إلى حد مخيف.

الكولونيل : (باهتمام) تقول إنك تستيقظ من هذا الحلم؟

بيكمان : لا. من صرختي وليس من حلمي. من صرختي؟

الأم : لا تتركنا يا أبتاه.. فإني أرتعد من الخوف

إلى الفهرس

الكولونيل : (باهتمام) وتصحو مذعورا من حلمك. أليس كذاك؟

بيكمان : لا.. من صـرختي ولـيس مـن حلمـي.. من صرختي.

الكولونيل : (باهتمام) أو ليس الحلم هـو الـذي جـرَك إلى هذه الصرخة؟

بيكمان : بلى هو كذلك؟ هو السبب. إنه حلم من نوع فريد للغاية. أريد أن أقصه عليك. أنت تسمع بالتأكيد، سيدي الكولونيل، أليس كذلك؟ رجل يعزف على إكسلفون ضخم. وهو منتـصب القامة. يعزف لحنًا مجنونًا. بينمـا يتـصبب منه العرق، فبدانته غير عادية وهو يتحرَك يمنة ويسرة مع كل نغمة علـى الإكـسلفون الضخم بينما يتصبب منـه العـرق، وهـو في الحقيقة بالغ البدانة، والغريـب أن مـا يتصبب منه ليس عرقًا، ولكنـه دم متـدفق داكن.. يجري إلى أسـفل فـي شـريطين أحمرين عريضين على جانبي سرواله، حتى

ليبدو من بعيد وكأنه جنرال؛ جنرال دموي بدين. لا بدَّ أنه موسيقي غريب الأطوار، ذلك الجنرال. فأجزاء الإكسلفون الخشبية ليست من الخشب على الإطلاق ولكن من العظام. صدقني، سيدي الكولونيل، من العظام!

الكولونيل : (بصوت خفيض) أجل، أصدق، من العظام.

بيكمان : (ما زال نصف نائم، تحوم حوله الأشباح) نعم، ليس من الخشب، ولكن من العظام. عظام بيضاء رائعة. عظام الجمجمة، والكتفين، والحوض، والنغمات العالية عظام الذراعين والساقين، ثُم تأتي الضلوع. آلاف مؤلفة من الضلوع، وفي نهاية الإكسلفون من حيث تصدر أعلى النغمات عظام أصابع اليدين والقدمين والأسنان. أجل تأتي الأسنان في النهاية. هذا هو الإكسلفون الذي يعزف عليه الجنرال البدين. أليس عازفًا غريب الأطوار، ذلك الجنرال؟

الكولونيل : (بتردُّد) صحيح، غريب الأطوار؟

بيكمان : نعم، وهنا البداية. فالآن يبدأ الحلم، الجنرال يقف أمام الإكسلفون الضخم ويوقع بذراعيه الصناعيين "مارش مجد بروسيا" أو موسيقى "البادنفيلر" العسكريـة ولكنه غالبا ما يعزف افتتاحيـة "مـارش الجـلاد يـا تـورن" – المقاتلين- والرفاق القدامي، لا بـدَّ أنـك تعرفها، سيدي، الكولونيل الرفاق القـدامى. ألا تعرفها؟ (يصمت).

الكولونيل : طبعا. طبعا. (يصمت هو الآخر).

بيكمان : ثُم يأتي المـصارعون والرفـاق القـدامى. ينهضون جماعـات مـن القبـر، وتـصل تأوهاتهم الدمويـة إلى القمر الأبيض. حتى أصبحت الليالي في مرارة بـراز القطـط. وفـي حمـرة عـصير التـوت الـشوكي على قميص أبـيض، والليـالي، أصـبحت لا تُطَاق حتى ما عدنا نقوى على التـنفس. نحن نختنق؛ إذ ليس لنا فم نقبل به أو شراب

نتجرَعه، سيدي الكولونيـل. حـين يـأتي الموتى. الموتى الدمويون.. في لـون بقـع عصير التوت.

الابنة : أتسمعون. إنه مجنـون؟ يقـول إن القمـر أبيض! القمر!.. أبيض!.

الكولونيل : (بعدم اكتراث) غير معقول! القمر كعادتـه أصفر دائما. كخبـز العـسل! أو كفطيـرة البيض إنه دائما أصفر.

بيكمان : لا يا سيدي الكولونيل. لا! في هذه الأمسيات التي يأتي خلالها الموتى يكون القمر أبيض ومريضا. كبطن شابة حامل، أغرقت نفسها في الجـدول. شـديد البيـاض، مريـضا ومستديرا. لا يا سيدي الكولونيـل، القمـر أبيض في تلك الأمسيات التي يأتي خلالهـا الموتى. وتأوهات دمائهم تنبعث منها رائحة كريهة كبراز القطط، حتى لتصعد إلى القمر الأبيض المستدير المريض. دماء. ودمـاء. ثُم ينهضون من القبر جماعات. بـأربطتهم

المتعفـنة وأزيائهم العـسكريـة الماطخـة بالدماء. ينهضون من الطرق والـصحارى والمحيطات، ويخرجون من الغابات من بين الأطلال والمـستنقعات، سـودا يرتعـدون من البرد. لونهم أخضر، تنبعث منهم رائحة العفونـة وينهـضون مـن الـصحراوات، بلا أسنان، بعين واحـدة، بـذراع واحـدة، بلا سيقان، ممزقي الأحشاء، بـلا جمـاجم ولا أيدي. – الفجوات تمـلأ جثـثهم، هـم متعفـنون. والبحر يقـذف إلـى الـشاطئ بطوفان مخيف من الجثث التـي لا حـصر لها، وعذابها لا حدّ لـه! وبحـر الأمـوات المخيف الذي لا حدود له تعـدّى شـاطئه، وامتدّ فوق الأرض عريضا كثيفًـا كالـدم؛ عندئذ يقول لـي الجنـرال ذو الـشريطين الدمويين: بيكمـان. تحمـل المـسئوليـة. ويأمرني بعدهم. ثُم أقف أمام ملايين الهياكل العظميـة، أمام الكائنات المتنـاثرة، أمـام

العظام البالية، أباشر مـسئوليتي، وآمـرهم بالعد. ولكن الرفاق لا يعدُّون. إنمـا تهتـز فكوكهم بشكل مخيف، ولا يعدُّون. ويـأمر الجنرال بثني الركبة خمسين مرة، فتقرقـع العظام البالية، وتحدث الرئتان صوتًا رفيعا، ولكنهم لا ينطقون! وهذا عصيان للأوامـر يا سيدي الكولونيل! عصيان صريح.

الكولونيل : (في همس) أجل، عصيان صريح!

بيكمان : وأولئك الشياطين لا ينطقون. ولكنهم يلتئمون إلى جـوار بعـضهم، أولئـك المتعفنـون ويكونون جوقـة تـردد هتافـات مرعـدة، مهددة.. غامضة. أتعلم بأي شيء يصرخون سيدي الكولونيل؟

الكولونيل : (هامسا) لا.

بيكمان : يصرخون هكذا دائمـا: بيكمـان. (ضـابط الصف بيكمان)!! (ضابط الصف بيكمان)!! والصراخ يعلو ويـزداد. ويقتـرب ويمـلأ الفضاء بحيوانيـة، كما لو كان إله يصرخ.

يصرخ بـصوت غريـب، بـارد هائـل. والصراخ يزداد ويعلو، ويقتـرب ويـزداد! ويعلو بدرجة خانقة حتى لأعجز عن التقاط نسمة واحدة من الهواء. ثُم أنطلق عبر الليل صارخًا. فلا بدّ لي أن أصرخ. وأن أصرخ بصوت مخيف، مخيف جدا.. وهكذا أظـل مستيقظًا على الدوام.. كل ليلة.. وكل ليلـة يعزف "الكونشرتو" على الإكسلفون العظمي وكل ليلة الجوقـة، والـصراخ المخيـف. ثُم لا أستطيع العودة إلى النوم؛ لأنني تحملت المسئوليـة. تحملـت المـسئوليـة. نعـم تحملتها. من أجل هذا أتيت إليك الآن سيدي الكولونيل؛ إذ أريد أن أذوق في النهاية طعم النوم. من أجل هذا أتيت إليك لأنـي أريـد أن أنام، أريد أخيرا أن أنام.

الكولونيل : وماذا تريد مني إذن؟

بيكمان : أن أعيدها إليك.

الكولونيل : تعيد ماذا؟

بيكمان : (بسذاجة) المسئوليـة. أعيد إليك المسئوليـة هل نسيته تماما الرابع عشر مـن فبرايـر، سيدي الكولونيل؟ في بلدة جورودوك. كانت درجة الحرارة ٤٢ تحت الـصفر ووقتهـا جئت نحو موقعنا، وناديتني: ضابط الـصف بيكمان. وصحت أقـول: حاضـر! وقلـت وأنفاسك تتجمد على شـكل حبـات ثلجيـة صغيرة على ياقة معطفك. نعم، وما زلـت أذكر هذا جيدا. فقد كانت لك ياقة من الفراء الجميل قلت: ضابط الصف بيكمـان، إنـي أحملك مسئوليـة العشرين رجـلاً. علـيكم أن تقوموا باستكشاف الغابة الواقعة شـرق جــورودوك، وأن تأســروا مــا أمكــن من الأعداء. مفهوم؟ ورحت أجيب: سـمعا وطاعة، سيدي الكولونيل. ثُم افترقنا، وقمنا بالجولة المطلوبـة. وأنـا – أنـا تحملـت المسئوليـة فقد تسللنا طول الليل، وتبادلنـا النيران مع العدو. وعندما عدنا إلى مواقعنا،

كنا قد فقدنا أحد عشر رجلاً. وأنا تحملـت المسئوليـة. نعم. هذا هو كل شيء، سـيدي الكولونيل. أما الآن فقد انتهت الحرب، الآن أريد أن أنام. الآن أعيد إليك المـسئوليـة، سيدي الكولونيل، فلست أريدها. أعيدها إليك سيدي الكولونيل..

الكولونيل : ولكنك يا عزيـزي بيكمـان تثيـر نفـسك بلا داعٍ. لم يكن هذا أبدا هو المقصود.

بيكمان : (بجدية صـارمة، خاليـة مـن الحمـاس) كلا سيدي الكولونيل بـل كـان هـذا هـو المقصود. ليست المسئوليـة مجرد كلمـة، أو معادلة كيميائية. يتغير تبعا لهـا اللحـم البشري ذو اللون الفاتح إلى تـراب أسـود قاتم. لا يستطيع المرء أن يحكـم بـالموت على الناس لمجرّد كلمـة فارغـة. لا بـدّ أن نذهب بمسئوليتنا إلى أي مكان؛ فالأموات لا يجيبون، والله لا يجيـب. أمـا الأحيـاء فيسألون. يسألون كل ليلة، سيدي الكولونيل.

وحين أرقد مستيقظًا يأتون إليَ ويسألون. نساء، سيدي الكولونيل. نساء مكلومات، حزينات، نساء عجائز ذوات شعر رمادي وأيدٍ صلبة مشعرة، ونساء صغيرات ذوات عيون وحيدة متلهفة، وأطفال، سيدي الكولونيل. أطفال. أطفال صغار كثيرون. يهمسون من خلال الظلام: ضابط الصف بيكمان، أين ولدي يا ضابط الصف بيكمان؟ ضابط الصف بيكمان أين ذهبت بزوجي؟ أين أخي؟ أين خطيبي يا ضابط الصف بيكمان؟ ضابط الصف بيكمان أين؟ أين؟ أين؟ هكذا يهمسون حتى يطلع النهار. في رقبتي إحدى عشرة امرأة فقط، سيدي الكولونيل. إحدى عشرة امرأة فقط. كم عددهن عندك، سيدي الكولونيل؟ ألف؟ ألفان؟ هل تنام هادئ النفس سيدي الكولونيل؟ ربما لا يزيدك شيئًا إن أنت أضفت إلى الألفين مسئولية الأحد عشرة؟

إلى الفهرس

أيمكنك أن تنام سيدي الكولونيـل؟ وحولـك ألف شبح كل ليلة؟ هل تـستطيع أن تعـيش على الإطلاق سيدي الكولونيل؟ أن تعـيش دقيقة واحدة دون أن تصرخ. هل تنام سيدي الكولونيل.. هل تنام هادئ النفس حقًا سيدي الكولونيل؟؟ إن هذا لن يزيدك.. شيئًا، ثُم إني ربما استطعت أن أنام في النهاية. إذا رأفت بحالي واستعدتها منـي، المـسئوليـة إذن لاستطعت في النهاية أن أنام هادئ الـنفس. هادئ البال. هذه هي المسألة. نعم. هـادئ البال، سيدي الكولونيـل! وبعدئـذ أنـام.. يا إلهي!

الكولونيل : (تنبهر أنفاسه، ولكنه لا يلبـث أن يـضحك ليستبعد ضيقه النفسي – يتحدَث بلهجة خالية من القسوة، يغلب عليها الطيبـة والفظاظـة وعدم الثقة بالنفس) أيها الشاب، أيها الـشاب لا أعرف على وجه التحقيق. لـست أدري على وجه التحقيق. هل تكتم أنك من أنصار

السلام؟ أليس كذلك؟ هدام إلى حد ما. أتنكر ذلك؟ ولكن (يضحك أوَّل الأمر باضـطراب ثُم لا تلبـث أن تنتـصر عليـه بروسـيته، فيضحك ملء فيه).

يسودني اعتقاد أنك شقي صغير يا عزيزي. أليس كذلك؟ (يضحك) – أفكـارك رائعـة يا رجل، رائعة جدا! إنها لفكاهـة عميقـة! أتعلم (يقطع ضحكاته) أتعلـم، بكـل هـذه الأفكـار يمكنـك أن تؤلـف مـسرحيـة! وتخرجها على خشبة المـسرح (الكولونيـل لا يريد أن يجرح بيكمان، ولكنـه مرفـه، وساذج للغاية وجندي قديم، حتى أنه يفهـم حلم بيكمان على أنه مجـرد فكاهـة) هـذا المنظـار لا معنـى لـه، وقـصة الـشعر المضحكة! عليـك أن تخـرج كـل هـذا مع الموسيقى (يضحك) يا إلهي هذا الحلـم اللذيــذ! ثنــي الركــب، ثنــي الركــب على موسيقى الإكسلفون! لا يـا عزيـزي

عليك أن تعتلي خشبة المسرح! فستـضحك الإنـسانيـة. سـتموت مـن الـضحك! أوه يا إلهي! (يضحك والدموع في عينيـه، وينفخ في فمه) لم أتصوَر في أوَل الأمر أنك كنت بصدد استعراض هـذه المـسرحيـة الغريبة. فقد اعتقدت فعلاً، أنك مصاب بلوثة في عقلك. لم أتصوَر أنك ممثل كوميـدي. لا. لقد جعلت أمسيتنا في غاية الروعة. أنت تستحق مكافأة على هذا. أتعلم مـاذا عليـك أن تفعل؟ انزل واغتسل عند سائقي بالمـاء الساخن. واحلق لحيتك. اجعل مـن نفـسك آدميا وقل للسائق أن يعطيك إحدى سـتراتي القديمة. نعم، إني جاد فيمـا أقـول! ألـق ملابسك الممزَقة بعيدا، والبس إحدى ستراتي القديمة. بالتأكيد يمكنك أن تفعل هذا لتعـود آدميا يا بني! – ستصبح آدميا من جديد!!!.

بيكمان : (يستيقظ ولأوَل مـرة يـصحو مـن عـدم اكتراثه) ماذا؟ سأعود آدميا؟ سأصبح آدميا؟

(يصرخ) سأعود آدميا؟ حقا!!.. مـن أنـتم إذن؟ آدميون؟ آدميون؟ آدميون؟ كيف هذا؟ ما هذا؟ أحقًا؟ هل أنتم آدميون؟ حقًا!!.

الأم : (تصرخ بشدَة. وشيء يسقط) لا! سـيقتلنا! لا!!! (بارتعاش).

(ضجة مخيفة. يختلط صراخ أفراد العائلـة في فزع).

زوج الابنة : أمسك المصباح جيدا!.

الابنة : النجدة! لقد انطفأ النور! اصـطدمت أمـي بالمصباح!.

الكولونيل : اهدءوا يا أطفال!

الأم : أضيئوا النور!

زوج الابنة : أين المصباح؟

الكولونيل : هنا. إنه. هنا.

الأم : الحمد لله، لقد عاد النور.

زوج الابنة : لقد اختفى صاحبنا. مـن أوَل الأمـر وأنـا مرتاب في أمره.

الابنة : واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، لا، ما زال كـل شيء كما هو. لم يكسر سوى طبق اللحوم.

الكولونيل : كيف هذا؟ عم كان يبحث إذن؟

زوج الابنة : ربما كان مجنونًا بالفعل.

الابنة : لا. أترون؟ اختفت زجاجة "الروم".

الأم : يا إلهي خمرتك المفضلة يا بابا..!

الابنة : ونصف الرغيف – أيضا اختفى!

الكولونيل : ماذا. الخبز؟

الأم : أخذ معه الخبز؟ حقًا، ماذا عـساه أن يفعـل بالخبز؟

زوج الابنة : ربما أراد أن يلتهمـه. أو يرهنـه. فأمثـال هؤلاء الناس لا يخجلون من أي شيء.

الابنة : حقًا، ربما أراد أن يلتهمه.

الأم : نعم ولكن – حتى الخبز الجاف؟

(باب يصرُ ويقفل)

بيكمان : (مرة أخرى على قارعة الطريق وزجاجـة تكركر) الناس على حـق (يـزداد ثمالـة)

في صـحّتكـم. الخمـر يـشعِر بالـدفء. لا. الناس على حق!! فـي صـحتكم. هـل نستمرُ بالوقوف. ونحـزن علـى المـوتى؟ في صحتكم. الناس علـى حـق!. يتكـاثر الأموات على رءوسـنا. بـالأمس عـشرة ملايين، واليوم أصبحوا ثلاثين، وغدا يـأتي من يطـيح بقـارة كاملـة فـي الفـضاء. وفي الأسبوع القادم يأتي من يكتشف طريقة جديدة لإفنـاء الجميـع فـي سـبع ثـوانٍ بما لا يزيد عن عشر جرامات من السم. هل نحزن؟! في صحتكم يغمرني إحـساس أنـه علينا أن نبحث في القريب عن كوكب آخر. إني ذاهب إلى السيرك. إنهم علـى حـق. لقد كاد الكولونيل أن يموت مـن الـضحك! وهو يقول كـان علـيّ أن أعتلـي خـشبة المسرح. بمأساتي هذه. بعرجي، ومعطفـي ووجهي، والمنظار الـذي يغطـي الوجـه، وشعر الرأس الشبيه بالفرشاة. إن الكولونيل

على حق فالإنسانية تموت مـن الـضحك!
في صحتكم. عاش الكولونيـل! لقـد أنقـذ
حيــاتي. تحيــاتي أيهــا الكولونيــل!
في صحتكم. عاشت الدماء! عاشت البسمات
على وجوه الموتى! إني ذاهب إلى السيرك.
الناس يموتون من الضحك، حين يصبح كل
شيء مرعبا ومقيتًا. دماء وموتى كثيـرون.
تعالى. كركري مرة أخرى فـي صـحتكم.
لقد أنقذت الخمر حياتي، وأغرقـت عقلـي!
في صحتكم! (بتعاظم يهيئـه لـه الخمـر)
من امتلك خمرا أو مضجعا أو امرأة حقـق
حلمه الأخير فلربما كان الغد متأخرا جـدا!
وشيد من حلمه لنفسه فُلْك نوح ليعبـر هـذا
الشيء المخيف إلى الظلام الأبـدي، وهـو
يسكر ويغنـي. أمـا الآخـرون فيغرقـون
في القلق والشك! من امتلك خمرا فقد أنقـذ!
في صحتكم! عـاش الكولونيـل الـدموي!
عاشت المسئوليـة! وداعـا. إنـي ذاهـب

إلى السيرك، عاش السيرك! السيرك الأكبر!

المشهد الرابع

حجرة مدير أحد الملاهي الليلية. بيكمان. ما زالت تبدو عليه أعراض السكْر خفيفة

المدير : (باقتناع عميق) انظـر، نحـن محتـاجون في الفن بالذات إلى شباب يلقى كافة المشاكل بروح وثابة. شباب شجاع متفتح الأفكار.

بيكمان : (محدثًا نفسه) متفتح الأفكار، أجـل، لا بـدّ أن يكون متفتح الأفكار.

المدير : شباب ثوري. نحن بحاجة إلى شيلر الـذي أبدع مسرحيته "اللـصوص" ولـم يتجـاوز ربيعه العشرين. نحن بحاجة إلى هينـريش هيني آخر، نحن بحاجة إلى فكـر عبقـري لماح.. إلى شباب بعيد عن الرومانسية قريب من الواقع الملموس، يواجه مآسـي الحيـاة بشجاعة. واقعي محايد. رزين. نحن بحاجة إلى شباب، إلى جيل يـرى العـالم ويحبـه على ما هو عليـه، يرفـع رايـة الحقيقـة

إلى أعلى. رأسه ممتلئ بالخطط والأفكـار. وليس هذا بحاجـة إلـى حكمـة ضـاربة في العمق فلسنا نريد من بلغوا من النـضج منتهاه. بل يجب أن تعبر صيحات الـشاب، صيحات قلوبهم، عن التطلع إلى المجهـول، عن الأمل، عن الجوع.

بيكمان : (محدثًا نفسه) الجوع، أجل، هذا متوفر لدينا.

المدير : ولكن على أولئك الشبان أن يكونوا صـغار السن أشداء وشجعان. خاصة في الفن، انظر لقد وقفت وأنا لـم أتعـد الـسابعة عـشر من عمري على مسرح الملهى، وتحـدَيـت البرجوازية الرجعية. إننا لا ينقصنا سـوى الروّاد الذين يستطيعون أن يعرضوا وجـه هذا الزمن المليء بالحيويـة. بالمعانـاة. باليأس.

بيكمان : (محدثًا نفسه) أجـل. أجـل. أن يعرضـوا على الدوام وجوها، بنـادق، أشـباحا وأي شيء.

المدير : ثُم أنه يخطر لي سؤال متعلق بوجهك. مـا الداعي للسير بهذا المنظار المضحك؟ أيـن إذن منظارك الأصلي يا رجـل؟؟ إن هـذا يفزع من ينظر إليك، هذا الجهاز المخيـف الذي تحمله على أنفك.

بيكمان : (في آلية) أجل منظاري الحربي. تـسلـمناه في الجيش نحن ضعاف النظر؛ حتى نتعرَف على العدو من تحـت الكمامـة ونتمكـ ـن من ضربه.

المدير : ولكن الحرب قد انتهت منـذ عهـد بعيـد. ومضى علينا وقت طويل ونحن في غمـار الحياة المدنية، وما زلت تصرُ على أن تبدو بهذا العتاد الحربي؟

بيكمان : يجب ألا تـستاء مـن هـذا. فمـا عـدت من سيبريا سوى أوَل أمس. أجل أوَل أمس.

المدير : سيبريا؟ شيء كريه أليس كـذلك؟ وكريهـة أيضا هذه الحرب.. ولكن هذا المنظار أليس لديك سواه؟

بيكمان : أنا سعيد الحظ لأني امتلك هذا على الأقـل. فهو منقذي وبدونه لا أجد أي منقذ، أعني أي منظار.

المدير : أو لم تدخر شيئًا يا صديقي؟

بيكمان : أين؟ في سيبريا..؟

المدير : حقًا.. سيبريا الكريهة.. أتظنُّ أن لدي كفايتي من المنظارات. أجل يا لذكائي. أنـا مالـك سـعيد لـثلاث منظـارات ممتـازة.. أرستقراطية.. ذات إطارات رائعة.. إطارات حقيقية يا عزيزي. واحدة صفراء لأوقـات العمل، وأخرى عاديـة للخـروج. وثالثـة في الليل للمسرح. أتفهـم.. منظـار أسـود ذو إطار ثقيل هيئته ممتازة يا عزيزي.

بيكمان : وليس عندي ما أعطيك إياه حتـى تبيعنـي أحدهم. بل إني "مرمم" وبلا عون. إني أدرك إلى أي حد يبدو هذا المنظار منفـرا ولكـن ما الحيلة ربما استطعت أنت أن...

المدير : إلى أين ذهب خيالك يا سيدي الفاضل؟ لست

إلى الفهرس

أستطيع الاستغناء عن واحد من منظـاراتي الثلاث. فكافة أفكاري، وتصرُّفاتي ومزاجي معتمدة عليها.

بيكمان : أجل هـذا هـو نفـس الأمـر بالتقريـب مع منظاري.. يا للخمر التي لا تتوفر كـل يوم، وحين تفرغ إذا بالحيـاة كالرصـاص. راكدة، رماديـة، بـلا جـدوى. وإن كـان على ما يبدو أن هذا المنظار القبـيح الـذي يفزع السماء أصلح كثيرا لخشبة المسرح.

المدير : كيف ذلك؟

بيكمان : أعنـي أنـه غريـب. فالنـاس سـيموتون من الضحك حين يروني بالمنظار ثُم بقصة الشعر هذه وهذا المعطف. والوجـه، تأمـل وجهي، هذا كله مسلٍ للغاية. أليس كذلك؟.

المدير : (يبدو عليه الضيق) مسلٍ؟ مـسل؟ سـوف يختبئ الـضحك فـي حنـاجر الجمهـور يا عزيزي؛ فهيئتك تبعث فـيهم قـشعريرة رطبة باردة تتسلق أعناقهم. سوف تتـصاعد

تلك القشعريرة الرطبة الباردة حين يـرون هذا الشبح القادم من العالم الـسفلي ولكـن الجمهور يريد الاستمتاع بالفن فـي نهايـة الأمر. أن يجمـع بـين الثقافـة والتـسلية لا أن يشاهد أشباحا باردة مبللة لا. لا يمكن أن نتركك على هذا الوضع. يجب أن نقـدم للجمهور شيئًا أكثر عبقرية، أكثـر تفـاؤلا. أكثر روية. شيء إيجابي.. يا عزيزي تذكر جوته، تذكر موتسارت، عـذراء أورليـان، ريتشارد فاجنر، شميلنج، شيرلي تمبل.

بيكمان : لا يمكنني بالطبع أن أقـارن نفـسي بهـذه الأسماء. فأنا فقط بيكمان. "باء" في المقدمـة و"إيكمان" من الخلف.

المدير : بيكمان؟ بيكمان؟ لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم في الملاهي. أو كنت تعمل تحت اسم مستعار؟.

بيكمان : لا. إني مستجد تماما. مبتدئ. مجرد مبتدئ.

المدير : (يغير رأيه كلية) هل أنت مبتـدئ؟ اسـمع

يا صديقي في وقتنا هذا لا تسير الأمور بهذه البساطة، لا ربما خُيـل إليـك أن الأمـر على شيء من الـسهولة. فهـذه الطريقـة لا تحقق لك ولا لي أي مستقبل. أنت تستهتر بمسئوليتنا نحن المتعهدين فقد يعنـي تقـديم مبتدئ أن ندمر كل ما بنيناه، الجمهور يريد أسماء.

بيكمان : جوته، شميلنج، شيرلي تمبـل، أو أمثـالهم، أليس كذلك؟.

المدير : أجل أمثالهم. أما المبتـدئون؟ المـستجدون، غير المشهورين؟ أوه.. كم عمرك؟.

بيكمان : خمسة وعشرون.

المدير : هيء.. أيها الصديق الصغير اترك الـريح أولاً تهب بالقرب من أنفك، استنشق بعـض تجارب الحياة.. ماذا جرَبت حتى الآن؟.

بيكمان : لم أجرب شيئًا حتى الآن.. سوى الحـرب.. والجوع والبرد والرصاص وإصابتي هـذه. ولا شيء غير ذلك.

المدير : لا شيء غير ذلـك!؟ ومـا هـذا! عليـك يا صديقي أن تدخل ميدان القتال في الحيـاة اجتهد وجرب الحياة. اصنع لنفـسك أسـما. ثُم عد إليَ وستكون عظيما ونقدمك كفنـان كبير.

بيكمان : (الذي ظل حتى الآن هادئًا رتيبـا. يتحـوَل ثائرا بالتدريج)، وأين عليَ أن أبدا؟ أين. إذن لا بـدَ أن يحـصل المـرء علـى الحـظ فـي أي مكـان، لا بـدَ أن يبـدأ البـادي في أي مكان. صحيح أنه لم تهـب الريـاح بالقرب من أنوفنا في روسيا. فلم يكن هناك سوى حديد كثير. حديد ساخن صاب لا قلب له. أين نبدأ إذن؟ أين إذن؟ بل نريد أن نبدأ ذات مرة يا حفيد آدم.

المدير : في استطاعتك أن لا تخاطبني بهذه اللهجـة. فأنا لم أرسل أحدا إلى سيبريا.

بيكمان : لا. لم يرسلنا أحد إلى سيبريا. لقـد ذهبنـا من تلقاء أنفسنا تماما. نحن جميعـا ذهبنـا

من تلقاء أنفسنا. والبعض مكث هناك من تلقاء نفسه. تحت الجليد والرمال. أولئك الذين بقوا هناك.. الأموات.. الذين أتيحت لهم الفرصة. أما نحن، فلا نستطيع أن نبدأ الآن في أي مكان.

المدير : (يعدل عن رأيه) كما تشاء إذن – فابدأ. أرجوك ابتدئ. لا تطل فإن وقتي ثمين. أرجوك ابتدئ، إنني أتيح لك الفرصة الكبرى. إن حظك لا يقدر. إنني أعيرك أذني. قدر هذا، أيها الشاب. أقول لك قدر هذا. أبدأ إذن بحق السماء. أرجوك. (موسيقى إكسلفون خافتة. يتبين المرء ميلودية "زوجة المحارب الصغير الشجاعة").

بيكمان : (يغني، وكأنه يهمس في صوت خفيض، يغني برتابة وفي ملل)

أيا زوجة الجندي. شجاعة وصغيرة...

ما زلت أعرف الأغنية على وجه التمام..

الأغنية العذبة الجميلة..

وإن كان في الحقيقة كل شيء علـى أسـوأ ما يرام..

المجموعة : كان العالم يضحك..

بيكمان : وأنا أئن من الألم..

وضباب المساء..

كان يحجب كل شيء..

والقمر وحده يرسم ضحكة على وجه..

من خلال ثقب..

في ستائر النافذة.

وحين عدت منذ برهة إلى داري..

كان مضجعي مشغولاً..

والذي أفزعني كثيرا.

هو أني وقتها لم أنتحر.

المجموعة : كان العالم يضحك..

بيكمان : وفي منتصف الليل..

اصطدت فتاة جديدة..

ولم تنبس بكلمة عن ألمانيا..

وألمانيا هي الأخرى لم تسأل عنا.

وكان الليل قصيرا، وأقبل الصباح..

وهنا وقف شخص بالباب..

بساق واحدة، وكان زوجها..

حدث ذلك في الساعة الرابعة من الصباح.

المجموعة : كان العالم يضحك..

بيكمان : والآن أدور في الخارج من جديد.

وتدور في نفس الأغنية..

أغنية الشريفة..

أغنية زوجة المحارب الشريفة.

(الإكسلفون يوزع النغمات)

المدير : (في تخاذل) ليس سيئًا، لا، ليس سيئًا في الحقيقة. بالنسبة لمبتدئ طيب جدا. ولكن يا صديقي الصغير مازال ينقصك خفة

الروح. فالتألق هنا ليس بكـافٍ، لا وجـود لتلك الومضة الخاصة. ليس هذا شعرا بعد. بالطبع، فأين هنا الطابع المميـــز، وأيـن رغبة الجنس التي يتطلـبها موضوع الخيانة الزوجية. فالجمهور يريد أن يثـار برفـق لا بشدّة. شيئًا فشيئًا.. وليس دفعة واحـدة.. فيما عدا هذا فهو إنتاج طيب جـدا بالنـسبة لحداثة عهدك بالحياة. كمـا أنـه لا وجـود للأخلاقيات والحكمة العميقة، ولكن كما قلت لك بالنسبة لمبتـدئ. لـيس هـذا بالـشيء السيئ.. فما زال وصفك سـاذجا مكـشوفًا جدا.

بيكمان : (محدثًا نفسه) مكشوفًا جدا.

المدير : عالي الصوت جدا. مباشر جـدا، فهمـت. بالطبع ينقص شبابك البشاشة والمرح.

بيكمان : (يحدث نفسه) البشاشة والمرح.

المدير : الهدوء، الروية. تذكـر أستاذنا الكبير جوته. لقد ذهـب إلـى ميـدان القتـال، وهنـاك

في عنفوان الحركة أبدع "أوبريت".

بيكمان : (محدثًا نفسه) "أوبريت".

المدير : هذه عبقريـة، هذا هو البون الشاسع.

بيكمان : أجل يجب أن نسلم بهذه الحقيقة. فعلاً.. بون شاسع.

المدير : يا صديقي العزيز، علينا أن ننتظـر بـضع سنوات.

بيكمان : ننتظر؟ إنني جائع.. لا بد أن أعمل.

المدير : أجل، ولكن على الفن أن ينـضج. فإلقـاؤك ما زال ينقصه الأناقة والخبرة. لا يـشجع، ما زال بدائيا، ومغرق في اليأس. لا. سوف تجعل الجمهور يغـضب. لا.. لا أسـتطيع أن أستعمل الخبز الأسود.

بيكمان : (هامسا): الخبز الأسود.

المدير : لإطعام الناس، إذا كانوا يطلبون "بسكويت". اصبر، اجتهد، وانضج. هـذا طيـب جـدا كما قلت، ولكنه ليس بعد فنًا.

بيكمان : فن! فن!! ولكنها الحقيقة بالتأكيد.

المدير : أجل، الحقيقة.. لا علاقـة للفـن بالحقيقـة على الإطلاق.

بيكمان : (محدثًا نفسه) لا..

المدير : بالحقيقة لن تذهب بعيدا.

بيكمان : (محدثًا نفسه) لا..

المدير : لن يقبل عليك أحد إذا تمسكت بها. إلى أيـن المطاف إذا أراد الناس جميعـا أن يقولـوا الحقيقة فجأة. من يريد اليوم أن يعرف شيئًا عن الحقيقة؟. من؟ هذه هي الحقـائق التـي يجب ألا تنساها أبدا.

بيكمان : (بحرارة) أجل، أجل، أفهم. شـكرا. بـدأت أفهم. هذه هي الحقائق التي يجب ألا ننساها أبدا (يعلو صوته بالتـدريج حتـى يـصبح مع صرير الباب عاليا جدا).. التـي يجـب ألا ننساها أبدا "من يتمسك بالحقيقة لا يذهب بعيدا. بالحقيقة لا يقبل الناس على المـرء. مـن يريـد إذن أن يعـرف اليـوم شـيئًا

عن الحقيقة؟ (بصوت عالٍ). أجـل، بـدأت أفهم، هذه هي الحقائق..

(بيكمان ينصرف بدون تحية.. باب يحدث صريرا عنـد إغلاقه)

المدير : ولكن أيها الشاب ِلم تأثرت بهذه السرعة؟.

بيكمان : (يائسا).

فرغ الخمر.

وأصبح العالم رماديا.

كبشرة خنزيرة عجوز.

الطريق إلى نهر الألبيه على مد البصر.

الآخر : ابق هنا يا بيكمان.. هنا الطريق.. هنا فوق.

بيكمان : الشارع عابق برائحة الـدم. هنـا اغتـالوا الحقيقة. طريقي ذاهب إلى نهر الألبيه وهو ينحدر من هنا إلى أسفل..

الآخر : تعال يا بيكمان، يجب ألا تيـأس.. الحقيقـة على قيد الحياة.

بيكمان : الحقيقة كمومس شهيرة في المدينـة. الكـل

يعرفها، وإن كان من المخجـل أن يقابلهـا المرء على قارعـة الطريـق؛ لـذا يجـب أن يحتفظ بها في الخفاء وراء ستار الليـل. وهي في وضح النهار، تبدو رمادية، وقحة، قبيحة. المومس والحقيقة. البعض يقاطعهـا مدى الحياة.

الآخر : تعال يا بيكمان، يوجد في مكان مـا بـاب مفتوح على الدوام.

بيكمان : أجل لجوته، شيرلي تمبل أو شميلنج. أما أنا فأُدعى بيكمان فقـط. بمنظـاري، وقـصة شعري المضحكة، بيكمان ذو الـساق التـي تعرج، معطف "بابا نويـل"، لـست سـوى مهزلة سـيئة، صـنعتها الحـرب. شـبح من صنع الأمس، ولأني مجرد بيكمان وليس موتسارت فجميع الأبواب مغلقة في وجهي. طاخ. من أجل هـذا أقـف فـي الخـارج. طاخ. مرة أخرى. طاخ. وأظل على الدوام. طاخ. وعلى الدوام في الخارج. طاخ، ولأني

إلى الفهرس

مبتدئ لا أستطيع أن أبدأ في أي مكان. ولأن صوتي خفيض جدا، لم أصبح ضابطًا، ولأن صوتي عالٍ جدا يذعر مني الجمهور. ولأن لي قلبا يصرخ في الليل على الموتى. يجب أن أعود إلى آدميتي أولاً. على حـد قـول الكولونيل.

فرغ الخمر..

وأصبح العالم رماديا..

كبشرة خنزيرة عجوز..

الشارع عابق برائحة الـدم، فقـد اغتيلـت الحقيقة. وجميع الأبـواب موصـدة. أريـد الذهاب إلى داري، ولكن كل الطرق حالكة. ليس أمامي سوى الطريق المنحـدر نحـو الألبيه، فهو مضيء.. آه، إنه مضيء.

الآخر : البث هنا يا بيكمان. الطريق من هنـا. هنـا الطريق إلى دارك. يجب أن تعود إلى دارك يا بيكمان. فوالدك جالس في انتظارك وأمك واقفة على الباب. لقد عرفت وقع خطاك.

بيكمان : يا إلهي إلـى داري. أجـل أريـد العـودة إلى داري. أريد العودة إلى أمي. أريد العودة في النهاية إلى أمي.. إلى أمي.

الآخر : تعال من هنا طريقك. حيث يتـجه المـرء في البداية، ويفكـر في النهاية.

بيكمان : إلى داري حيث أمي، أمي...

المشهد الخامس

(منزل – باب – بيكمان)

بيكمان : ما زالت دارنا قائمة ولهـا بـاب، والبـاب ينتظرني هناك. ها هي أمي تفتح لي البـاب لأدلف إلى الداخل. ألا يزال منزلنا قائمـا؟ أ ما زالت درجات سلمه تئن كالمعتاد؟ ها هو بابنا. منه يخرج أبي في الثامنة مـن كـل صباح. وإليه يعود في كل مساء ما عدا أيام الآحاد. حيث يعبث بحلقة المفاتيح ويزمجـر محدثًا نفسه، كل يوم صـورة مـن الحيـاة كاملة. أمي تدخل وتخرج من هنـا، ثـلاث مرّات. سبع مرّات، عشر مرّات في النهار. كل نهار، طوال حياتهـا. هـا هـو بابنـا من ورائه باب المطبخ يحدث صوتًا كمـواء القطط. ومن ورائه تحشرج الساعة، معلنـة بصوت مكتوم دقات الساعة التي لا تعـود. ومن ورائه كنت أجلس على كرسي مقلوب

وألهو بلعبة سباق السيارات. ومن وراء هذا الباب يسعل والدي، ويتجشأ صنبور المـاء ويتقلقل البلاط العتيق في المطبخ عندما تدق عليه أمي بقدميها في رواحها وإيابها. هـذا هو بابنا، تنساب من خلفه حياة كخيط ينساب من لفافة لا نهاية لها.. حياة ظلت على حالها هذا مدى ثلاثين عاما كاملة، وعلـى هـذا المنوال تستمرُ على الدوام. لقد مرَت الحرب بهذا الباب ولكنها لم تـصبه، لـم تنتزعـه من مكانه. لقد ظل بابنـا سـليما، بمحـض الصدفة، أو على سبيل السهو. والآن، هو ذا الباب في انتظاري، إنه يفـتح مـن أجلـي ويغلق من ورائي، عندئذ لـن أظـل واقفًـا في الخارج؛ إذ أكون في داري. هذا هو بابنا العتيق ذو الطـلاء المتـساقط، وصـندوق الخطابات المنبعج، وزر الجرس المذبـذب، واليافطة النحاسية اللامعة، التي تنظفها أمي كل صباح، وعليها اسم عائلتنا – بيكمـان.

لا.. لا وجود لليافطـة النحاسيــة. لمـاذا اختفت الياقطة النحاسيـة من هنا؟ مـن ذا الذي نزع اسمنا؟ ما هـذه البطاقـة القـذرة الملصقة ببابنا؟ وهذا الاسم الغريـب الـذي يعلوها؟ بالتأكيد لا يسكن هنا أحـد يـدعى كرامر. لِـم لَم يظل اسمنا إذن على البـاب؟ لقد لبث هنا ثلاثين عاما. ولا يمكن أن يزال ببساطة هكذا ليوضع مكانه اسم آخر. أيـن إذن يافطتنا النحاسيــة؟ إن بـاقي أسـماء سكان الدار ما زالت باقية على مـا كانـت عليه دائما، على أبوابها. لِـم لَم يظل هنا اسم بيكمان؟ لا يمكن أن يلصقَ بهـذه البـساطة اسم آخر. إذا كان اسم بيكمان قد ظل هنـا ثلاثين عاما. فمن يكون إذن ذلك الكرامر؟

(يدق الجرس. ويفتح الباب بصرير)

مدام كرامر : (بلهجة غير مكترثة يغلـفها ودٌ مصطنع هو في الحقيقة أبشع من أقسى ضروب الصفاقة والفظاظة) ماذا تريد؟

بيكمان : أجل. نهارك سعيد. أنا.

مدام كرامر : أنت ماذا؟

بيكمان : هل تعرفين أين ذهبت يافطتنا النحاسيـة؟

مدام كرامر : ماذا تعني "بيافطتنا النحاسيـة"؟

بيكمان : اليافطة التي ظلـت معلـقة على الدوام هنا. طوال ثلاثين عاما.

مدام كرامر : لا أعرف.

بيكمان : ألا تعرفين إذن أين ذهب والداي؟

مدام كرامر : من تعني؟ ومن أنت؟

بيكمان : أنا بيكمان. لقد ولِـدْت هنا.. إن هذه الـدار دارنا.. بالتأكيد.

مدام كرامر : (بلهجـة ثرثـارة. وإن لـم تقـصد بها أن تجرحه) لا، ليس هذا صحيحا. هـذا مسكننا نحن، ربما ولِـدْت هنا، ولكن هـذا لا يعنيني في شيء، ليست هذه الدار دارك، إنه مسكننا نحن.

بيكمان : أجل.. أجل ولكن أين ذهب والداي؟ لا بـدَّ

أنهما يقطنان بناحية ما؟.

مدام كرامر : أنت ابن تلك العائلة.. عائلة بيكمان. قل هذا فأنت تُدعى بيكمان.

بيكمان : أجل بالطبع. أُدعى بيكمان. لقد وِلـدْت هنا فعلاً في هذه الدار.

مدام كرامر : ربما حدث ذلـك ولكـن هـذا لا يعنينـي في شيء. فهذا مسكننا نحن.

بيكمان : ولكن والديَ أيـن والـداي إذن؟ ألا يمكـن أن تخبريني أين هما؟

مدام كرامر : ألا تعرف ذلك حقًا بينما تدعي أنك ابنهمـا؟ إنك لغريب الشأن – كيف لا تعرف هذا؟

بيكمان : يا للسماء أين ذهب العجوزان إذن؟ لقد مكثا هنا ثلاثين عاما. والآن يختفيان هكذا دفعـة واحدة خبريني لا بدّ أنهما في مكان ما.

مدام كرامر : بالتأكيد. على قدر ما أعرف المقبـرة رقـم (٥).

بيكمان : المقبرة رقم (٥) أي مقبرة رقم (٥)؟

مدام كرامر : (بلهجة مسالمة يغلب عليها الاكتئاب) المقبرة رقم "5" تقع في أولسدورف. أتعرف ما هي أولسدورف؟ المدافن.. أليس كذلك؟ أتعـرف أين تقع المحطات الثلاث النهائية لهامبورج فالسجن يقع فـي فولـسبوتيل. والمؤسـسة العقابية في الـستردورف وتقـع المـدافن في أولسدورف. أتـرى.. هنـاك يـسكن العجـوزان إنهمـا يـسكنان هنـاك الآن. لقد رحلا من هنا. أحقًا لا تعرف ذلك؟.

بيكمان : وماذا يفعلان هناك؟ هل ماتـا؟ لقـد كانـا على قيد الحياة حتى وقت قريب مـن أيـن لي أن أعرف ذلك؟ لقد مكثت في سيبريا مدّة ثلاثة أعوام كاملة.. أكثر من ألف يوم. أماتا حقًا؟! منذ وقت قريب كانا هنا، كانا هنـا.. لِم ماتا إذن قبـل أن أعـود إلـى الـدار؟ لم ينقصهما شيء. ألمجرّد أن والدي كـان يسعل.. ولكنه كان يسعل دائما! وأمي كانت البرودة تتسرّب إلى قدميها من بلاط المطبخ.

ولكن هذا لا يمكن أن يـؤدي بـأي حـال إلى الموت. لماذا ماتا إذن؟ لـيس لموتهمـا أدنى سبب. لا يمكن أن يموتا هكذا ببـساطة وفي سكون.

مدام كرامر : (تتحدّث بلهجة عاطفية لا تخلو من فظاظة) إنك لغريب الشأن يا بني. لننس كل ما كان، فألف يوم في سيبريا ليست بمتعة علـى أي حال. أحسب أن المرء ينهار علـى أثرهـا ويستسلم. الواقع أنه لم تتح للعجوزين فرصة للاستمرار في الحياة، لقد كان لهمـا نـشاط زائد في عهد النازي – وأنـت تعلـم هـذا بالتأكيد، فوالدك كان مولعا بارتـداء الـزي الحربي وكثيرا مـا كـان ينتابـه جنـون الاضطهاد. أنت تعرف هذا بالتأكيـد. أنـت أيها الابن تعرف أن والدك كان لا يحتمـل الأجانب. كانوا يثيرون حفيظته.. كان ثائرا عليهم دائما يريد أن يبعث بهم إلى الجحـيم، ومن مخبئه كان يصبُّ لعناته عليهم مع كل

إلى الفهرس

قنبلة تسقط وتتفجـر. كان والدك العجـوز على قدر كبير من النشاط في ذلك العهـد. فلما قُضِي على النازيـة.. أطاحوا بالـسيد الوالد. لا أدري لماذا لم يستطع أن يمـسك لسانه. ذو النشاط الزائد. بيكمان العجـوز.. وانتهى عهد القمصان الزرقـاء فوضـعوه تحت الاختبار ولكنه كان لا يصلح – ولكن يا إلهي. أي شيء سخيف تضعه على أنفك؟ ما هذا المنظار السخيف؟ لا يعقل أن يكـون هذا الشيء منظارا. أليس لديك منظار عادي أيها الفتى؟.

بيكمان : (بآليـة) لا. هـذا منظـار حربـي. سـلم إلى المحاربين الذين....

مدام كرامر : أعرفه أعرفـه بالتأكيـد. ولكنـي لا أقبـل أن أضــع علــى وجهــي شــيئًا كهـذا. وإلا فالأفضل لـي أن أبقـى فـي البيـت. قد يكون هذا جديرا بتعليق زوجي العجوز. أتعلم ماذا سيقول لو رآك؟ أيها الشاب. انزع

أسوار القنطرة من على وجهك.

بيكمان : ولكن ماذا حدث لوالديَ. إن الأمر يبدو مرا على هذه الصورة. استمري يا مدام كرامـر استمري.

مدام كرامر : ليس هناك ما يقَال سوى أن والـدك طُـرد من العمل وأصبح بدون معاش.. وفوق ذلك كان على العجوزين أن يغـادرا المـسكن.. علـى ألا يحتفظـا إلا بالأوعيـة وأدوات المطبخ، بالطبع كان هذا مؤسفًا. أمر مقبض حقًا. وهذه هي الضربة التي قضت على ما تبقـى من حطام العجوزين. فلـم يحـتملا الحياة بعد كل ما حـدث ولـم يعـد لهمـا فيها من أمل؛ وهكذا تطهرا مـن مبادئهمـا النازيـة إلى الأبد.. والمسئول عن هذا هـو والدك العجوز؛ فقد كان السبب في كل مـا حدث.

بيكمان : ماذا حدث لهما؟ تقولين تطهرا...

مدام كرامر : (تتغلب الطيبـة علـى لهجتهـا) "تطهـرا

إلى الفهرس

من مبادئهما النازيـة". هذا اصطلاح خاص بنا. أجل.. لم يعد لوالديك العجوزين من أمل في الحياة. وفي ذات صباح وجِدا راقـدين على أرض المطبخ وقد كستهما زرقة الموت وتصلـبت جثتاهما. هذه الحماقة. هكذا قال زوجي. كان في استطاعتنا أن نطبخ بالغاز الذي اختنقا به مدّة شهر كامل.

بيكمان : (بصوت مسلوب. وبلهجة كلها تهديد) أعتقد أنه من الأفـضل لـك أن تغلقـي البـاب. أسرعي.. أسرعي.. أغلقي الباب جيدا. أقول أغلقي الباب. هيا. افعلي بسرعة.

(الباب يصرُ ومدام كرامر تصرخ في هـستريا. يـصفع الباب)

بيكمان : (بصوت متهدج خافـت) لا أحتمـل هـذا. لا أحتمل هذا.

الآخر : لا يا بيكمان. لا. بل يجب أن تحتمل.

بيكمان : لا. لست أريد أن أتحمل بعد الآن. اغـرب عن وجهي أنت أيها الأبلـه القائـل "نعـم"

اغرب عن وجهي.

الآخر : لا يا بيكمان، طريقـك مـن هنـا. اصـعد على الطريق تعال: فلتداوم علـى الـصعود يا بيكمان ما زال الطريق أمامـك طـويلاً. تعال.. تعال..

بيكمان : يا الك من خنزير. ولكـن. ربمـا أمكننـي أن أحتمــل قــد أحتمــل وأنــا صــاعد علــى الطريــق. هكــذا نحــن. نــستمرُ على الطريق ونـستمرُ.. وأحيانًـا ينقطـع عن رئتينا الهواء، وتثور في نفس الواحد منا رغبة في القتل. ولكنـا لا نقتـل ونـستمرُ في التنفـس. ونكف عن الصراخ والبكـاء بحرقة. حقًا ربما أمكنني أن أحتمل. هـذان العجوزان قد أصبحا في عـداد الأمـوات. من يهتمُ بالحديث عن الأموات؟

الآخر : اهدأ يا بيكمان.. تعال.

بيكمان : قد يكون من المحزن حقًا أن يكون الميتـان المقصودان هما والداك أنت أمـا أن يكونـا

مجرد ميتين عجوزين. فيا لضياع الغـاز..
كان في إمكان عائلـة كرامـر أن تطـبخ
به شهرا كاملاً.

الآخر : لا تلق بالاً يـا بيكمـان تعـال. الطريـق في الانتظار.

بيكمان : أجل لا تلق بالاً يا بيكمان. بينما أحمل قلبـا يصرخ، قلبا يرغب في القتل. قلبـا معـذبا مسكينًا، يريد أن يقتل أولئك الحزانى الـذين يولولون على الغاز. (الغاز الضائع) أجـل لا تلق بالاً يا بيكمان بينما أحمل قلبا يريـد أن ينام، أن ينام نوما عميقًا في نهر الألبيه. والقلب يصرخ في حشرجة مكتومة ولكـن ما من أحد يسمعه. لا هنا تحت ولا هنـاك فـوق. عجـوزان انـتقلا إلـى مـدافن أولسدورف. ربما بالأمس ألفين. وربما أوَّل أمس سبعين ألفًا. وغدا قد يصبحون أربعـة آلاف أو ستة ملايين. يرحلون إلـى القبـر جماعات. وما من أحد يسأل عـنهم. هنـا،

تحت لا نجد إنسانًا يـصغي وهنـاك فـوق ما من إله يسمع. الله ينام ونحـن نواصـل المسير.

الآخر : بيكمان.. بيكمان. لا تلقِ بالاً يا بيكمان أنت ترى كل شيء من خلال منظـار حربـي. ترى كل شيء معوَجا يا بيكمان. لا تلقِ بالاً إلى كل هذا.

من قبل كان الناس يجلـسون فـي مدينـة كاربشتات تحت المصابيح الزرقاء كل مساء ويتنهـدون فـي أسـى عنـدما يقـرءون في الصحف عن فتاتين تجمدتا فـي جليـد ألاسكا. من قبل كانت الحياة هكذا.. لم يكـن الناس ليـستطيعوا النـوم فـي هـامبورج إذا خُطِف طفل في بوسطن، من قبل كـان يمكن أن يحدث ذلك. كـان مـن الممكـن أن تحزن مدينة سان فرانسسكو إذا تُوفِّـي قائد بالون في باريس.

بيكمان : من قبل.. من قبل.. من قبل.. متى كان ذلك

القبل.. مـن عـشرة آلاف سـنة؟ اليـوم لا تجد سوى قوائم بأعداد المـوتى مزينـة بست أصفار على اليمين. ولكن الناس كفوا عن التنهد تحت مصابيحهم. فهم ينامون نوما عميقًا إذا كانت هناك ثمـة مخادع. وينظر كل منهم أمامه صامتًا ونفسه تفيض بالألم.. خدودهم غـائرة، متـصلبين مـشدوهين.. تبتلعهم الوحدة.. سوف يطعمـون بالأرقـام التي لا قبل لهم بنطقهـا.. فهـي طويلـة.. والأرقام تعني.

الآخر : (مقاطعا) لا تهتم يا بيكمان.

بيكمان : اسمع.. اسمع إلى أن تموت أنت الآخـر.. أرقام طويلة.. طويلة.. لا قِـبـل لأحـد بنطقها.. وهي تعني...

الآخر : (مقاطعا) لا تهتم..

بيكمان : اسمع.. وهي تعني أمواتًا.. أنصاف أموات، موتى القنابل، موتى شظايا القنابل.. مـوتى الجوع، موتى المتفجرات، موتى العواصف

الثلجية، مـوتى البحـار، مـوتى اليـأس.. المفقودين.. وهذه الأرقام تحمل أصفارا أكثر عددا من أصابع اليد.

الآخر : لا تهتم وهيـا. فـالطريق فـي الانتظـار يا بيكمان.. تعال.. اصعد.

بيكمان : أصعد إلى أين.. إلى أين يذهب بـي هـذا الطريق؟ أين نحن؟ أما زلنا هنا؟ أما زالـت هذه الأرض القديمة؟ ترى ألم تتجدَّد لنا أيـة بشرة جديدة؟ ألم ينبت لنـا ذيـل أو أنيـاب أو مخالب؟ أمازلنا نسير على ساقين؟ أيهـا الإنسان. أيها الإنسان أي طريـق تـسلك؟ إلى أين أنت ذاهب؟ أجب أيها الآخر أيهـا القائل نعم.. أجب يا من تجيب إلى الأبد.

الآخر : أنت تخطئ الطريق يا بيكمان.. تعال. ابـقَ صاعدا فالطريق من ها هنا.. لا تلـقِ بـالاً فالطريق مفتوح وممتد. لا تصرخ حين تسير الدُنيا إلى الوراء أو حـين يظلـم الكـون، فالطريق مستمر وفي كل مكـان مـصابيح

شمس.. نجوم.. نساء.. نوافذ.. فـوانيس...
وأبواب مفتوحة.. لا تـصرخ حـين تقـف
نصف ساعة وسط الضباب وحيدا في الليل
فسوف تقابل الآخرين دائما. تعال أيها الفتى،
لا تيأس. لا تلقِ بالاً إلى الإيقـاع العـاطفي
العذب للاعب الإكسلفون.. لا تهتم.

بيكمان : لا تهتم؟ أهذه كل إجابتك؟ ملايـين المـوتى
وأنصاف الموتى والمفقودين. أيستوي كـل
هذا وأنت تقول لي لا تهتم؟ لقـد أخطـأت
الطريق.. أجل.. الطريق غامض ومرعـب
كالهوّة السحيقة.. ولكننا في الخارج نصرخ
ونبكي ونجوع ونمضي مـساكين متعبـين
نرتعد من البرد. ولكن نهر الألبيـه لفظنـي
من جديد كما لو كنت شيئًا عفنًا.. الألبيـه..
لا يريدني أن أنام. وأنت تقول لـي: عـش
يا بيكمان. أأعيش هذه الحياة؟ إذن أخبرنـي
لماذا أعيش؟ لأجل من؟ لأي غاية أعيش؟

الآخر : لنفسك.. للحياة.. طريقك فـي الانتظـار..

الفوانيس تقابلك، الواحد تلو الآخر.. هل أنت جبان حتى تخاف ذلك الضوء الخافت بـين كل فانوسين..؟ ألا تريد سوى فوانيس تعال يا بيكمان. استمر حتى الفانوس التالي.

بيكمان : أنا جائع.. أرتعد من البـرد. لـست أقـوى على الوقوف بعد.. إنني متعب. افتح لي بابا. أنا جائع. الطريق مظلم وجميـع الأبـواب موصدة.. صه أيها القائـل نعـم.. أحـسُّ بالحنين إلى داري.. إلى أمي..إلـى الخبـز الأسود.. ليس مـن الـضروري أن يكـون بسكويتًا، لا ليس هذا ضروريا. بالتأكيـد.. لو احتفظت لي أمي بقطعة من الخبز الأسود وجوارب دافئة لذهبت إلى الكولونيل، ممتلئ المعدة منتشيا بالدفء، وجلست على المقعـد الوثير وقرأت دوستويفـسكي أو جـوركي، كم هو رائع أن يكون المرء شبعان ودافئًـا. ثُم يجلس في استرخاء ليقـرأ عـن بـؤس الآخرين. ثُم يتنهـد أسفًا علـيهم وتعاطفًـا

معهم ولكن واأسـفاه فعينـاي.. تغمـضان على الدوام.. إنـي جـائع.. أذوب تعبـا.. أو لو تثاءبت كما يفعل الكاب.. تثاءبت حتى تبان حنجرتي. لم أعد أقوى على الوقوف.. إنني متعـب. والآن لا أريـد أن أسـتمر. لا قدرة لي على احتمال ذلك بعد الآن أتفهم؟ ولا مسيرة مليمتر واحد. ولا...

الآخر : لا تستـسلم. هيـا يـا بيكمـان.. فالحيـاة في انتظارك.. هيا يا بيكمان..

بيكمان : لست أريد أن أقرأ دوستويفسكي وفي أعماق هذا الهلع.. لن آتي.. لا، أنا متعب..لا لـن آتي. أريد أن أنام.. هنا أمام بابي.. أرقد هنا أمام بابي على الدرجات. ثُم أنام. أنام. أنـام إلى أن تبدأ جدران الدار يوما ما بالتـداعي وتنهار بعضها فوق بعض من أثـر القـدم أو أظل إلى التجنيد القادم.. إنني متعب كعالم برمته يتثاءب.

الآخر : لا تقل إنك متعب يا بيكمان.. تعال وعش.

إلى الفهرس

بيكمان : هذه الحياة؟ هذه الحياة أقـل مـن العـدم.. لن استمرَ فيها.. ما قولك؟ إلى الأمام أيهـا الرفاق فالمسرحية سـتُمثل بـالطبع حتـى نهايتها.. من يدري في أي زاويـة مظلمـة أو على أي صدر عذب نرقد حـين يـسدل الستار في النهاية. خمسة فـصول مظلمـة مطيرة.

الآخر : واصل الحياة يا بيكمـان.. إنهـا تـستحق أن تعيشها.. فلتنهض أنت أيضا بالحياة.

بيكمان : اسكت ها هي الحياة...

الفصل الأول: سماء مظلمة – وإنسان يسيء إلى الآخر.

الفصل الثاني: سماء مظلمة – وذاك الآخـر يردُ الإساءة.

الفصل الثالث: الدُنيا مظلمة والمطر يسقط.

الفصل الرابع: الدُنيا أكثر ظلامـا ويـرى المرء بابا.

الفصل الخامس: الدُنيا ليل.. يلفها ليل عميق. والباب موصد. ونحن وقوف بالخارج. بالخارج أمام الباب نقف على شاطئ نهر الألبيه. على شاطئ نهر السين. على شاطئ نهر الفولجا.. أو المسيسيبي.. نقف هناك نخرف ونرتعد من البرد.. ينهشنا الجوع.. ونحن أموات من التعب.. ثُم فجأة يحدث صوت. وتحدث الموجات دوائر صغيرة مستديرة.. ثُم يهتز الستار وتصفق الأسماك والديدان. ولكن لا يسمع تصفيقها أحد. هذه هي المسألة. هل يزيد هذا عن العدم في شيء؟ أنا – أنا لن أستمرَ على أي حال بعد الآن. فتثاؤبي كبير. كبير كالعالم بأسره.

الآخر : لا تنم يا بيكمان.. عليك أن تستمرَ.

بيكمان : ماذا تقول؟ لقد انخفض صوتك فجأة.

الآخر : انهض يا بيكمان.. فالطريق في انتظارك.

بيكمان : ربما احتجَ الطريق على خطواتي المرتبكة

إلى الفهرس

المتعبة. لِم تبتعـد هكـذا. لا.. لا أسـتطيع أن أفهمك على الإطلاق (يتثاءب)

الآخر : بيكمان.. بيكمان.

بيكمان : هه.. (ينام).

الآخر : بيكمان.. أتنام.

بيكمان : (نائما) أجل.. أنام.

الآخر : استيقظ يا بيكمان.. عليك أن تعيش.

بيكمان : أستيقظ؟ لا.. لا أفكر فـي ذلـك إطلاقـاً.. ففي هذه اللحظة يراودني حلم جميل.. حلـم جميل..

الآخر : لا تواصل ذلك الحلم يـا بيكمـان.. عليـك أن تعيش.

بيكمان : أعيش؟ كيف هذا وأنا أحلم في هذه اللحظـة أني أموت..

الآخر : أقول لك أنهض.. عش.

بيكمان : أنهض؟ أعيش؟ لا.. لـم يعـد لـي قـدرة علـى النهـوض.! الحلـم جميـل. أرقـد

على قارعة الطريق وأموت. الرئة لا تعمل. والقلب لا يعمل. وكذلك الساق. إن بيكمـان كله لا يعمل. أتسمع؟ عصيان تام للأوامر.. ضابط الصف بيكمان يتوقـف عن العمـل. جنون.. أليس كذلك؟

الآخر : تعال يا بيكمان.. عليك أن تستمرَّ.

بيكمان : أستمرَّ؟ تعني إلى أسفل.. إلى أسفل؟؟ لم أكن أتصوَّر أن الموت جميل إلـى هـذا الحـد. لا بدَّ أن الموت مريح للغاية.. بدليل أن أحدا لم يعد إلينا من عالم المـوتى ليقـول لنـا إنه لم يحتمل الموت. ربما كـان.. المـوت طيب.. أكثر طيبة من الحياة. – أعتقد أنـي انتقلت إلى السماء فما عدت أحسُّ بنفـسي.. هذا هو ما يحدث عندما ننتقل إلى الـسماء. لا نحسُّ بأنفسنا. ها هو رجل عجوز قـادم يبدو على هيئته أنه الرحمن. أجل إنه يـشبه الرحمن.. كل ما في الأمـر أنـه لاهـوتي متعب.. يولول كثيرا.. أهذا هو الـرحمن؟

نهارك سعيد أيهـا العجـوز.. أأنـت هـو الرحمن؟؟.

الربُ : (بلهجة مولولة): أجل أنـا هـو الـرحمن يا بني.. يا بني المسكين.

بيكمان : هيه.. إذن فأنت هو الرحمن.. من ذلك الذي دعاك رحمانًا؟ الناس؟ أحقًا؟ أم أنت نفسك؟.

الربُ : الناس يدعونني الرحمن.

بيكمان : غريب. لا بدَ وأنها فئة قليلة جدا تلك التـي تـدعوك رحمانـًـا. ربمـا كـانوا طائفـة المرتاحين. الشبعانين.. السعداء. أولئك الذين يخافونك.. الذين يـسيرون علـى الوجـه المضيء من الحيـاة. شـبعى ومرتـاحين. أو أولئك الذين يتلوون من القلق في ظـلام الليل.. وهـؤلاء يـضرعون قـائلين أيهـا الرحمن. أما أنا فلا أقول أيهـا الـرحمن.. إذ لست أعرف رحمانًا واحدا.

الربُ : يا بني.. يا بني المسكين.

بيكمان : متى كنت رحيما أيها الرحمن..؟ هل كنـت

رحيما حين تركت قنبلـة متفجـرة تفتـك بصغيري. صغيري الذي لـم يعـد عامـه الأول؟.. هل كنت رحيما حين تركته يقتَـل أيها الرحمن؟ هل كنت؟

الرب : أنا لم أشر بقتله.

بيكمان : لا.. حقًا.. كل ما هنالك أنك سمحت بقتله.. لم تصغ إلى صرخاته حين تفجرت القنابل. أين كنت وقتها أيها الرحمن؟ أم كنت رحيما حين اختفي أحد عشر رجـلاً مـن فرقتـي الاستكشافيـة؟ أحد عشر مفقـودا.. وأنـت لم تكن معنا على الإطلاق. ومن المؤكـد أن الأحد عـشر رجـلاً صـرخوا بـأعلى أصواتهم في الغابة المنعزلـة. أمـا أنـت فلم تكن هناك. ببساطة لم تكن هنـاك أيهـا الرحمن. هل كنت رحيما في ستالينجراد أيها الرحمن؟ هل كنت رحيما؟ هل كنت رحيما؟ متى كنت؟ متى كنت رحيما إذن أيها الربُّ؟ متى؟ متى اهتممت بأمورنا أيها الربُّ.؟

إلى الفهرس

الربُ : لم يعد يؤمن بي أحـد. لا أنـت ولا أحـد. أنا هو الربُ الذي لم يعد يؤمن به أحد. الذي لا يهتمُ بأمره أحد. أنتم لا تهتمون بأمري.

بيكمان : تُرَى، هل درس الله علم اللاهوت؟ من الذي يهتمُ بالآخر؟ آه. أنت عجوز أيها الربُ أنت غير عصري. لم تعد تتبع القوائم الطويلـة لموتانا... وهمومنا. لم نعد نعرفك على وجه التحديد.. أنت أسطورة فـي كتـاب أيهـا الرحمن. نحن نريد ربا جديدا.. أتعـرف.. ربا يحسُ بهمومنا.. بحاجاتنا... ربا جديدا.. آه.. كنا نبحث عنك أيها الرحمن فـي كـل محنة. كلما سقطت قنبلة جديدة. في كل ليلة كنا نناديك أيها الربُ.. كنا نـصرخ إليـك ونبكي ونهرع إليك.. أين كنت أيها الرحمن وقتها؟ أين كنت أيها الرحمن وقتها؟ أين أنت في هذا المساء؟.. هل تبـرَأت منـا؟ هـل حبست نفسك داخل مذابح الكنائس الجميلـة العتيقة؟.. أيها الـربُ ألا تـسمع صـراخنا

من خلال النوافذ المهـشمة أيهـا الـربُ؟
أين أنت...؟؟

الربُ : أنتم يا أبنائي الذين تبرَأتم مني ولـيس أنـا الذي تركتم. أنتم تبرَأتم مني. أنتم تبـرَأتـم مني. أنا الربُ الذي لم يعد يؤمن به أحـد.. لقد تبرَأتم مني.

بيكمان : اذهب عني أيها الرجل العجوز – أنت تفسد عليَ موتي. اذهـب عنـي.. أراك مجـرد لاهوتي مولول.. أنت تعكـس العبـارات.. من يهتمُ بالآخر؟ من تبرَأ من الآخر؟ أأنـت أم نحن؟ أنت ميت أيها الربُ. كـن حيـا. ولتعش معنا في الليل. مع البرد والوحـدة. والمعدة التي تزمجر وسط الهدوء. عندئـذ فلتعش معنا أيها الربُ. أوه ابتعد مـا أنـت إلاّ لاهوتي. إن ما يجري في عروقك مـداد وليس بدم.

الربُ : يا بني.. يا بني المـسكين – لـست قـادرا على تغيير شيء.. لست قادرا على تبـديل

شيء.

بيكمان : أجل هذا كل ما في الأمر أيها الربُّ – فأنت غير قادر على تبديل شيء.. ونحن لم نعـد نخافك. لم يعد لحبك في قلوبنا مكان.. وأنت غير عصري واللاهوتيون جعلوا منك شيخًا عجوزا.. وسراويلك مهلهلة، ونعل حـذائك مثقوب وصوتك أصبح خفيضا – منخفـضا جدا بالقياس إلى رعد زمننا. لم نعد قادرين على سماعك أيها الربُّ.

الربُ : لا.. لم يعد يسمعني أحد.. لا أحد. أصواتكم عالية جدا.

بيكمان : أم أن صوتك خافت أيها الربُّ؟ إنما يجـري في عروقك مداد وليس بـدم. اذهـب أيهـا العجوز أنت حبيس جدران الكنيسة ولم يعد يسمع أحدنا الآخر. اجتهد أن تجد لنفسك قبل أن يخيـم الظلام ملجأ بأي مكان.. أو حلـة جديـدة أو غابـة مظلمـة. وإلا أجمعـوا على إدانتك إذا ساءت الأحـوال. وحـاذر

أيها الربُ العجوز من السقوط في الظلمـة؛ فالطريق شديد الانحـدار ملـيء بالهياكـل العظميـة. ولا تنس أن تـسدّ أنفـك أيهـا الربُ.. ثُم استمتع بنوم هادئ أيها العجـوز. عد إلى نومك الهادئ أيها الربُ العجـوز... طاب مساؤك.

الربُ : حلة جديدة أو غابة مظلمة؟ يا بني العزيـز. يا أبنائي المساكين.. يا أبنائي المساكين.

بيكمان : أجل... اذهب طاب مساؤك.

الربُ : يا أبنائي المساكين.. المساكين.. (يذهب).

بيكمان : إن أبناء الجيل القديم يختنقون ضـيقًا هـذه الأيام، ولم يعودوا قادرين علـى الانـسياب مع تيار الحياة الجديـد. إن كلامنـا يقـف في الخارج.. حتى الله يقف في الخـارج.. وما من أحد يفتح له بابا.. الموت وحده هو الذي يفتح بابه لنا. وهأنذا في طريقي إليه.

الآخر : عليك ألا تنتظر الباب الذي يفتحه لنا الموت فالحياة لها ألف باب.. ومن يعدك بأن وراء

باب الموت شيئًا أكثر من العدم.؟

بيكمان : وماذا وراء الأبواب التي تفتحها لنا الحياة؟

الآخر : الحياة.. الحياة نفسها.. تعال وأحي الحياة.

بيكمان : لم أعد قادرا. ألا تسمع كيف تحشرج رئتي كخ – كخ – كخ – ماذا بعد ذلك؟

الآخر : بل أنت صحيح البدن. رئتاك لا تحشرجان.

بيكمان : رئتاي تحشرجان. ماذا يحـشرج سـواهما. بل اسمع – كخ – كخ – كخ – ماذا سواهما إذن؟

الآخر : مكنسة كانس الطريق.. ها هو الكناس قادم.. يمرُ علينا بمكنسته التي تحشرج على بـلاط الطريق كرئـة مـصابة بـالربو. رئتـك لا تحشرج. أتسمع؟ إنها المكنسة.. أنصت.. كخ – كخ – كخ -

بيكمان : مكنسة كانس الطريق تحدث ذلك الـصوت كخ – كخ – كـخ – كرئـة مـن يـسـلِم الروح.. وعلى جـانبي سـروال الكنـاس شريطان أحمـران؛ فهـو قائـد الكناسـين

الألمان. وعندما يكنس تحشرج الرئات التي تموت - كخ – كخ – كـخ -. يـا كنـاس الطريق.

الآخر : لست بكانس طريق.

بيكمان : لست بكانس طريق؟ إذن فمن تكون؟

الآخر : أنا موظف بمعهد التعفـن والتحلل.

بيكمان : أنت الموت. بينما تمضي كانسا الطريق.

كـــانس الطريق : اليوم كانس طريق. وبـالأمس كجنـرال – لا يجب أن يكون الموت مـدققًا.. فـالموتى في كل مكان. بالأمس كـانوا علـى أرض ميدان القتال، حيث كـان المـوت جنـرالاً تـصحبه موسـيقى الإكـسلفون – واليـوم يرقدون على قارعـة الطريـق. ومكنـسة الموت تحدث الصوت كخ – كخ – كخ -..

بيكمان : ومكنسة الموت تحدث الصوت كخ – كخ – كخ... ومن جنرال إلـى كـانس الطريـق. هل هبط سعر الموتى إلى هذه الدرجة؟.

كـــانس : يهبط ويهبط.. وما من وداع. وما من عويل

الطريق علـى المـوت. ومـا مـن كلمـة رثـاء على القبور.. وما من تمثال لمحارب.. وهم يغرقون.. يهبطون. والمكنسة تحدث الصوت كخ – كخ – كخ...

بيكمان : هل تمضي الآن؟ بل امكث هنا. خذني معك خذني معك أيها الموت.. أنت تنساني أيهـا الموت.

كـــانس الطريق : أنا لا أنسى أحدا. فإكسلفوني يعزف مـارش الرفاق القدامى. ومكنستي تحدث الـصوت كخ – كخ – كخ -. أنا لا أنسى أحدا.

بيكمان : أيها الموت. دع لي بابـا مفتوحـا.. أيهـا الموت. لا تغلق الباب أيها الموت.

كـــانس الطريق : بابي مفتوح على الـدوام. علـى الـدوام.. في الـصباح والعـصر وعنـد المـساء.. وفي الضوء. ووسط الضباب بابي مفتـوح على الدوام.. على الدوام. في كل مكـان.. ومكنستي تحدث الصوت كخ – كخ – كخ..

إلى الفهرس

(الصوت كخ – كخ -. يختفـي بالتـدريج – ينـصرف الموت.)

بيكمان : كخ – كخ – استمع كيف تحـشرج رئتـي؟ كمكنسة كانس الطريق. وكـانس الطريـق يترك لي بابا مفتوحـا علـى مـصراعيه. وكانس الطريق اسمه المـوت.. ومكنـسته تحدث صوتًا كالمنبعث من رئتي، من ساعة عتيقة مكتومة الصوت كخ – كخ.

الآخر : بيكمان. انهض. فمـا زال أمامنـا بعـض الوقت... تعال – تنفس.. تنفس لتحيا.

بيكمان : بل رئتي تحدث ذلك الصوت.

الآخر : رئتك لا تحدث ذلك الصوت.. إنها المكنسة يا بيكمان.. مكنسة موظف حكومي.

بيكمان : موظف حكومي؟

الآخر : أجل. لقد مضى منذ وقت طويـل.. هيـا. انهض من جديد وتنفس. الحيـاة تنتظـرك بألف فانوس.. وألف باب مفتوح.

بيكمان : باب واحد يكفينـي.. بـاب واحـد يتركـه

لي الموت مفتوحا.. على حد قولـه.. بـاب واحد مفتوح لي على الدوام.

الآخر : انهض. أنت تحلم حلما مميتًا. أنت تمـوت في الحلم... انهض.

بيكمان : لا بل أظلـ راقدا. هنا أمام الباب. والبـاب مفتوح على حد قوله. أظـل راقـدا هنـا. هل أنهض واقفًا؟ أنا أسـتمتع هكـذا بحلـم جميل.. ويا له من حلم جميل. أحلم.. أحلـم أن كل شيء قد انتهى. وأن كانس الطريـق مرَ من هنا.. وأنه أطلق على نفـسه لقـب المـوت.. وأن مكنـسته كانـت تحـشرج كرئتي.. حشرجة مميتة. وهو قـد وعـدني بباب مفتـوح – فكانـسو الطريـق يمكـن أن يكونوا أناسـا طيبـين.. وهكـذا مـرَ بي كانس الطريق.

الآخر : أنت تحلم يا بيكمان.. تحلم حلمـا بـشعا.. استيقظ.. عش..

بيكمان : أعيش؟ بل أرقد على قارعة الطريق، وكـل

شيء.. كل شيء قد انتهـى. وأنـا ميـت على أي حال. انتهى كل شيء.. وأنا ميت.. ميت تماما.

الآخر : بيكمان.. بيكمان. يجب أن تعيش.. الكل حي من حولك على شمالك ويمينك وأمامـك. إلا الآخـرون.. وأنـت؟ أيـن أنـت؟ عـش يا بيكمان.. الكل يعيش.

بيكمان : الآخرون؟ من هم؟ الكولونيل؟ المدير؟ مدام كرامر؟ أعيش معهم؟ أنا هكذا سعيد بموتي. الآخرون بعيدون جدا. لا أريـد أن أراهـم من جديد.. الآخرون قتلة.

الآخر : بيكمان.. أنت تكذب.

بيكمان : أكذب؟ أليسوا أشرارا؟ هل هم خيرون؟

الآخر : أنت لا تعرف الناس. إنهم خيرون.

بيكمان : أجل إنهم طيبون. وقـد قتلـوني بمنتهـى الطيبة.. قتلوني بسخريتهم.. وضعوني أمام الباب وطردوني بمنتهى الطيبـة.. بمنتهـى الإنسانيـة. وهم عنيدون حتى في أحلامهم..

حتى في أعمق نومهم. هـا هـم يمـرُون بجثتي.. فلا أهمية لموتي.

الآخر : أنت تكذب يا بيكمان.

بيكمان : بل إن الناس يمرُون بجثتي غير عابئين أيها القائل نعم.. فالجثث كريهة ومملة.

الآخر : الناس لا يمرُون بموتك مرَ الكرام. النـاس لهم قلوب. إنهـم يحزنـون علـى موتـك يا بيكمان. وجثتك تعترض طريقهم طـويلاً في الليل حين يرغبون فـي النـوم. إنهـم لا يمرُون بموتك مرَ الكرام.

بيكمان : بل إنهم يفعلون أيها القائل نعـم.. فالجثـث قبيحة وكريهة. إنهم يمـرُون علـى عجـل ويسدُون أنوفهم ويغمضون عيونهم.

الآخر : إنهم لا يفعلون هذا.. إنما تخفق قلوبهم لكـل ميت.

بيكمان : انتبه. انظر. ها قد أتى أحدهم. هل مازلـت تعرفه؟ إنه الكولونيل الذي أراد أن يجعـل مني بحلته القديمة إنسانًا جديدا.. كولونيل..

يا كولونيل.

الكولونيل : يا الله.. هل عاد الشحاذون؟ كما لو عاد الأمر سيرته الأولى.

بيكمان : بالتقريب يا كولونيل. بالتقريب. كل شيء عاد إلى سيرته الأولى. فالشحاذون يأتون على الدوام من نفس الأماكن. ولكني لست شحاذًا يا كولونيل لا. أنا جثة مائية.. أنا مهجور يا كولونيل.. كنت محاربًا متعبًا للغاية يا كولونيل. كنت أُدعى بالأمس ضابط الصف بيكمان يا كولونيل. هل ما زلت تذكر بيكمان؟ كنت على شيء من ضعف البنية أليس كذلك يا كولونيل؟ أنت تذكر؟ أليس كذلك؟ وفي مساء الغد سأرقد على رمال بلانكنزيه أحمق صامتًا منتفخًا.. شيء كريه أليس كذلك يا كولونيل؟ وتضيفني إلى حسابك يا كولونيل. شيء كريه أليس كذلك يا كولونيل؟ ألفان وأحد عشر زائد بيكمان يساوي ألفين واثني عشر. ألفين

واثنى عشر شبحا ليليا. آه.

الكولونيل : لست أعرفك على الإطلاق أيهـا الرجـل. لم أسمع أبدا عن أحد يدعى بيكمـان. مـاذا كانت رتبتك العسكريـة إذن؟.

بيكمان : ولكن يا كولونيل.. لا بدّ أنك تـذكر آخـر موتاك صـاحب منظـار الكمامـة وشـعر المساجين والساق اليابسة.. ضابط الـصف بيكمان يا كولونيل.

الكولونيل : بالضبط إنه هو. أترى. أصحاب هذه الرتب الصغيرة مشكوك فيهم. فهم صلبو الـرأي.. أنصار السلام.. مصممون على أن يصبحوا جثثًا مائية. أأغرقت نفسك؟ أنت أحد أولئـك الذين أفقدتهم الحـرب آدميـتهم. أصـبحوا متوحشين. يفتقرون إلى فـضائل الجنديـة. منظر منفر.. هذا الشيء.

بيكمان : أجل. أليس كذلك سيدي الكولونيل. منظـر منفر.. هذه الجثث المائية المتراكمة المنتفخة البيضاء الهشة في هذه الأيام. والقاتل هـو

سيادتك يا كولونيل. سيادتك.. وكما لو كنت تحتمل هذا يا كولونيل.. تحتمـل أن تكـون قاتلاً؟ ما هو إحساسك بنفسك يـا كولونيـل وأنت قاتل.

الكولونيل : كيف هذا.. أرجوك؟.. أنا؟.

بيكمان : بالتأكيد سـيدي الكولونيـل. لقـد قتلتنـي بسخريتك. وكانت ضحكاتك مخيفـة أكثـر من جميع موتى العالم. لقد قتلتني بسخريتك سيدي الكولونيل.

الكولونيل : (دون أن يفهم).. هكذا؟ حقًا. كنـت واحـدا من أولئك الضائعين على أي حـال. طـاب مساؤك.

بيكمان : طاب مساؤك سيدي الكولونيل وشكرا جزيلاً على نعيك لي... هل سمعت أيهـا القائـل نعم.. يا صديق الإنسان.. هل سمعت نعـي جندي غريـق؟ أسـمعت تعليـق إنـسان على أخيه الإنسان.

الآخر : أنت تحلم يا بيكمان... أنت تحلم... النـاس

خيرون..

بيكمان : نعم فصوتك محتجب أيها المغني المتفائل... هل انقطع عنك صوتك؟ حقًا الناس خيرون.. ولكن في بعض الأيام غالبا ما نقابل الشرذمة الخبيثة. الناس ليسوا على هذه الدرجة من السوء.. فلست أريد أن أكون ظالما.. الناس طيبون.. كل ما في الأمر أنهم مختلفون بشكل رهيب. هذه هي المسألة، مختلفون بصورة غير معقولة.. أحدهم كولونيل بينما الآخر لا يعدو رتبة صغيرة. والكولونيل شبعان وصحيح البدن. يرتدي سروالاً من الصوف.. وفي المساء يجد مخدعا وزوجة.

الآخر : بيكمان.. لا تواصل الحلم.. انهض.. عش.. فكل أحلامك خاطئة.

بيكمان : والآخر يتضوَّر من الجوع.. يعرج ولا يملك حتى قميصا.. وفي المساء يجد مقعدا ممتدا بدلاً من المخدع.. حيث يسمع صفير الفئران

كحشرجة أنفـاس مـصاب بـالربو بـدلاً من همس زوجته.. لا.. الناس طيبون.. كل ما في الأمر أنهـم مختلفـون.. مختلفـون إلى حد بعيد جدا.

الآخر : الناس خيرون. هم فقـط لا يعلمـون وهـم على الدوام لا يعلمون.. ولكن قلوبهم.. انظر في قلوبهم قلوبهم طيبة.. كـل مـا هنالـك أن الحياة لا تعطـيهم الفرصـة ليعرضـوا قلوبهم.. صـدقني.. بالتأكيـد هـم أصـلاً خيرون.

بيكمان : بالطبع أصلاً. ولكن الأصل بعيد جدا. بعيـد إلى درجة غير معقولة. أجل. هم طيبون... طيبون أصلاً. كل ما هنالك أنهم مختلفـون. أحدهم أبيض والآخر رمادي.. أحدهم يرتدي سروالاً والآخر لا يرتدي.. وأنا هـو ذلـك الرمادي الذي لا يرتدي سروالاً. منحـوس الطالع. بيكمان ذو الجثة – المائية. ضـابط الصف المتقاعد بيكمـان. ذلـك الإنـسان

المتقاعد.

الآخر : أنت تحلم يا بيكمان. انهض. عش. تعـال. انظر الناس خيرون.

بيكمان : وهم يمرُون بجثتي مرَ الكـرام. يمـضغون ويضحكون.. يهضمون..ويبصقون. هكـذا. يمرُون بجثتي مرُ الكرام. أولئـك الطيبـون الرحماء.. الطيبون.

الآخر : اسـتيقظ أيهـا الحـالم. حلمـك بغـيض يا بيكمان.. استيقظ.

بيكمان : أجل. أحلم حلما مخيفًا بغيضا.. ها هو مدير الملهى الليلي في طريقه إلينا. هـل تحـبُ أن أعقد معه مقابلة أيها المجيب؟

الآخر : تعال يا بيكمـان. عـش. الطريـق ملـيء بالفوانيس. الحياة تغمر كل شيء. عش أنت أيضا.

بيكمان : هل أعيش مع الآخرين؟! أعيش مع مـن؟؟ مع الكولونيل؟؟...لا.

الآخر : مع الآخرين يا بيكمان.. عش مع الآخرين.

بيكمان : أمع المدير؟

الآخر : ومعه أيضا. مع الجميع.

بيكمان : لا مانع. مع المدير أيضا.. أنت.. يا سـيدي المدير.

المدير : من؟ أجل؟ من هناك؟

بيكمان : هل تعرفني؟

المدير : لا.. انتظـر.. منظـار الكمامـة.. حلاقـة روسية.. معطف حربي.. حقًا.. إنه المبتدئ صاحب أغنية الخيانة الزوجية.. ماذا كـان اسمك؟.

بيكمان : بيكمان

المدير : بالضبط... ماذا إذن؟

بيكمان : لقد قتلتني يا سيدي المدير.

المدير : ولكن يا عزيزي.

بيكمان : بالتأكيد. لأنك كنـت جبانـًا. لأنـك خنـت الحقيقة. لقد دفعت بي إلى نهر الألبيه البارد لأنك لم تعط الفرصة للبادئ كي يبدأ. أردت

أن أعمل.. وكنت جائعا.. ولكن بابك صفِقَ ورائي.. لقد كنت أنت يا سيدي المدير مـن دفعني لكي أسقط في نهر الألبيه.

المدير : لا بد أنك سريع التأثـر.. تقفز فـي نهـر الألبيه.

بيكمان : أجل في نهر الألبيه البارد يا سيدي المدير. هناك شربت مياه الألبيه حتى امتلأت سيدي المدير. شربت مرة واحدة. وشـبعت دفعـة واحدة. ولأجل هذا فقد مت. مأساة يا سيدي المدير. أليس كذلك؟ ألا تصلح أغنية تعرض في ملهاك..؟ أغنية العصر.. يشبع المـرء دفعة واحدة ثُم يموت لأنه شبع.

المدير : (بلهجة عاطفيـة لا تخلـو مـن سـطحية واضحة) هذا شـيء مرعـب. لقـد كنـت ذا حساسية أكثر من اللازم وهذا لا يـصلح في هذا العـصر.. كنـت شـديد الحمـاس للحقيقة.. أيها المتعـصب الـصغير كنـت ستزعج جمهور الملهى بأغنيتك.

بيكمان : عندئذ.. صفقت الباب في وجهي يا سـيدي المدير. وكان نهر الألبيـه يجـري هنـاك إلى أسفل.

المدير : (كلهجته السابقة) نهر الألبيه.. أحقًا غرقت؟ يا لك من خنزيرة مسكينة داستها الحياة حتى كتمت أنفاسها وسحقتها تماما. يشبع المـرء مرة واحدة ويموت لأنه شبع؟.. حقًا لو كنـا جميعا بهذه الحساسيـة؟.

بيكمان : لسنا كذلك يا سيدي المـدير. أجـل لـسنا على هذا القدر من الحساسية.

المدير : (كلهجته السابقة) لا.. يعلم الله أنـك كنـت واحدا من أولئك الملايين الذين قُضِي عليهم بالعرج في الحياة. لذلك فهم يفرحون حـين يسقطون في نهر الألبيه. في نهـر التيمـز. في نهر شبريه – لا يعنيهم أيـن.. فقبلهـا لم يستمتعوا بالراحة.

بيكمان : وأنت رفستني حتى أقع.

المدير : هراء. من قال هذا؟ لقد تقـدَمـت لـلأدوار

التراجيدية. ولكن الخامة كانـت جنونيـة.. أغنيـ ـة مبتـ ـدئ.. الجثـ ـة المـ ـائي ة ذات منظار الكمامة.. خسارة أن الجمهور لا يريد أن يـرى شـيئًا كهـذا.. خـسارة (ينصرف)

بيكمان : نم قرير العين يا سيدي المـدير. (موجهـا حديثه للآخر) هل سـمعت مـا دار؟ هـل أواصل الحياة مع الكولونيل؟ هل استمرُ فيها مع سيادة المدير؟

الآخر : أنت تحلم يا بيكمان.. استيقظ.

بيكمان : هل أحلم؟ تُـرى هـل الأشـياء مـشوهة من خلال هذا المنظار التعس؟ كلهم كالدمى المضحكة. بشر في صورة دمى مشوَهـة. هل سمعت عن النعي الـذي نـشره عنـي قاتلي؟ بعنوان: تعليق على مبتدئ. "إنه يقول في نعيه.. واحد آخر مـنهم – أنـت أيهـا الآخر... هل أواصل الحياة؟ هـل أواصـل العرج على قارعة الطريـق؟ إلـى جـوار

الآخر؟ وجوههم جميعا متشابهة منفرة خالية من التعبير أو الاهتمام. وكلهـم لا ينقطـع عن الثرثرة حتى إذا طُلِب منهم شيء واحد سرعان ما يصيبهم الخرس والحماقة. كيف هذا؟ أجل كما يفعل الآدميـون.. الآدميـون الجبناء. لقد اقترفوا في حقنا خيانة. خيانـة بشعة. فحين كنا صغارا صـنعوا الحـرب. وعندما كبرنا قليلاً قصوا علينـا ذكريـات الحرب.. بحماس. فقد كان الحمـاس دومـا يملؤهم. وما من أحد قال لنا في أي وجهـة كنا نسير. لم يخبرنـا أحـد أننـا ذاهبـون إلى الجحيم. ما من أحـد. كـانوا يعزفـون الموسيقى العـسكريـة ويحتفلـون بـذكر المعارك. بتقارير الحرب وخطط الهجـوم. بأناشيد الأبطال وأوسمة الاستشهاد. ملأتهـم الحماسة إلى هذا الحـد. وأخيـرا جـاءت الحرب.. وأرسلونا إلى الميدان.. ولم يزيدوا على قولهم لنا: أدوا واجبكم أيها الـشباب..

إلى الفهرس

أدوا واجبكم.. وهكذا اقترفوا في حقنا خيانة.. خيانة بشعة. والآن يجلسون خلف أبوابهم. حضرات الأساتذة والمديرون ومستشارو العدالة وكبار الأطباء. والآن يتنصلون من جرائمهم. يجلسون وراء أبوابهم ويغلقونها بأحكام. ونحن نقف في الخارج. أما هم فيجلسون على مقاعدهم الوثيرة ويشيرون إلينا بأصابعهم. أولئك الذين اقترفوا في حقنا خيانة بشعة. والآن يمرُون بقتيلهم مرَ الكرام.. يمرُون ببساطة هكذا.

الآخر : أنهم لا يمرُون مرَ الكرام يا بيكمان. أنت تبالغ. أنت تحلم. انظر إلى قلوبهم يا بيكمان. إن لهم قلوبا... إنهم طيبون.

بيكمان : ولكن مدام كرامر تمرُ بجثتي بلا اكتراث.

الآخر : لا. هي أيضا لها قلب.

بيكمان : مدام كرامر..؟.

مدام كرامر : أجل

بيكمان : هل لك قلب يا مدام كرامر؟ أين كان قلبـك عندما قتلتني يا مدام كرامر؟ لقـد اغتالـت عائلة بيكمان. بالتأكيد يا مدام كرامر. هذين العجوزين وابنهما بيكمان. أو لم تعاوني حقًا في القضاء على والديَ؟ ألم تجعلي الحيـاة بالنسبة لهما أكثر مشقة؟ ثُم بعد ذلك تقـذفين بابنهما في نهر الألبيه – ولكن قلبك يا مدام كرامر؟ ماذا يقول قلبك؟.

مدام كرامر : هل أنت بمنظارك المضحك من صنع نهـر الألبيه! لم أكـن أتـصوَر هـذا. اعتقـدت في بداية الأمر أنك أيهـا الـصغير مجـرد مكتئب ضاق بالدُنيا. أتلقي بنفسك في نهـر الألبيه؟ أيها الصغير المسكين.

بيكمان : أجل. لأنك حملت إليَ وبمنتهى الرقة خبـر مصرع والديَ. وكان بابك هو آخر الأبواب التي طرقتها وتركتني أقف في الخارج. بينما كنت أنسج أملي طيلة ألـف يـوم قـضيتها في سيبريا على هذا الباب. أتعلمـين أنـك

ارتكبت عفوا – جريمـة قتـل "صـغيرة"؟
أو لا تعلمين ذلك حقًا.

مدام كرامر : (بلهجة فظة حتى لا يغلب عليها البكاء) أنت واحد من أولئـك المنحوسـين.. سـيبريا.. صنبور الغاز. مقابر أولسدورف. حقًا. كان كل ذلك أكثر من أن يحتمل. لكم يؤلمني كل هذا. ولكن كيف يستطيع المـرء أن يبكـي جميع الناس لو أراد. لقد بدا عليـك الكـدر أيها الـشاب.. ولكـن لا يجـب أن تيـأس وألا تمرر في حلقنا ذلـك القـدر الـضئيل من الزبد الصناعي الذي ندهن به خبزنا كل يوم.. يقفز أحدهم في الماء. أجل.. وما أكثر ما نراه في الحياة.

بيكمان : أجل.. أجل وداعا يا مدام كرامر.

هل سمعت أيها الآخر؟ هل سـمعت نعـي امرأة عجوز لشاب؟ امرأة عجوز لها قلب.. هل سمعت أيها المجيب الصامت؟.

الآخر : استيقظ يا بيكمان. (يـأتي صـوته خافتًـا

متقطعا).

بيكمان : إن صوتك ينخفض فجأة.. أنت تبتعد هكذا.. دفعة واحدة.

الآخر : يراودك حلم مميت يا بيكمـان. اسـتيقظ.. عش. لا تهتم بنفسك إلى هذا الحد.. الموتى يسقطون في كل يوم.. أمن المعقول أن تكتظ الأبدية بصرخات اللوعة والأسى؟ عـش.. كل خبزك المـدهون بالزبـد الـصناعي.. عش.. إن للحياة ألف باب.. تعلـق بهـا.. انهض.

بيكمان : أجل إني أنهض.. فها هي زوجتي قادمـة.. زوجتي الطيبة.. لا.. إنها تصطحب صديقها معها. ولكنها من قبل كانت طيبة بالتأكيد. لِم قضيت أعواما ثلاثة إذًا في سـيبريا؟ لقـد انتظرت ثلاثة أعوام.. أعرف ذلـك.. فقـد كانت طيبة معي على الدوام.. الذنب ذنبـي أنا.. أما هي فكانت طيبة.. ترى هل مازالت طيبة إلى اليوم؟.

الآخر : حاول. عش.

بيكمان : أنت؟ لا تخافي أنا هو.. ألقي عليّ نظـرة.. أنا زوجك أنا بيكمان.. أنت يا زوجتي لقـد تخلصت من حياتي.. ما كان عليك أن تفعلي هذا مع الرجل الآخر.. فقـد كنـت لـك – وحدك.. أنت لا تسمعينني على الإطـلاق. أنت.. أعلم أنـه كـان عليـك أن تطيلـي الانتظار... ولكن لا تحزني.. فحالي اليـوم على خير ما يرام.. أنا ميت.. لم أعد أريـد الحياة بدونك أنت.. ألقي عليّ نظرة.. أنت.

"الزوجة تعبر الطريق متمهلة وقد التصقت بصديقها متأبطة ذراعه.. دون أن تـسمع بيكمان "

أنت.. لقد كنت زوجتي. ألقي عليّ نظـرة.. يا من أوديـت بحيـاتي.. نظـرة واحـدة على الأقـل.. أنـت لا تـسمعينني علـى الإطلاق؟ أنت قاتلتي.. والآن تَمرين بجثتي مرّ الكرام.. لم لا تسمعينني إذًا.؟ (الزوجـة

تمرُ مع صديقها) لم تسمعني.. إنها لم تعد تعرفني. هل مت منذ زمن طويل؟ لقد نسيتني ولم يمضِ على موتي سوى يوم واحد؟ الناس طيبون إلى هذه الدرجة. وأنت أيها القائل نعم.. أيها المجيب الهتاف. إنك لا تنطق. إنك تبتعد.. هل أواصل الحياة؟ أمن أجل هذا أتيت من سيبريا؟ وأنت تقول لي عليَّ أن أعيش. كافة الأبواب على شمال الطريق ويمينه موصدة. والفوانيس جميعها مطفأة. جميع الفوانيس مطفأة ولا يتقدَم المرء إلى الأمام إلا إذا سقط. وأنت تقول عليَّ أن أواصل السقوط؟ ألا أجد عندك سقطة أخرى؟ لا تبتعد هكذا أيها الصامت. أما زلت تحتفظ لي بفانوس مضيء وسط هذه الظلمة؟ تكلم. فأنت فيما عدا هذا تعرف الكثير.

الآخر : ها هي الفتاة التي انتشلتك من نهر الألبيه. التي بعثت فيك الدفء. ها هي الفتاة التي

أرادت أن تقبل رأسك الأحمق يـا بيكمـان. إنها لا تمرُ بموتك مرَ الكرام. لقـد بحثـت عنك في كل مكان.

بيكمان : لا إنها لم تبحث عني. لم يبحث عني أحـد. لست أريد أن أعود إلى تصديق ذلك. لـست أستطيع معاودة السقوط. أتسمع؟ لا يبحـث عني أحد.

الآخر : لقد بحثت عنك الفتاة في كل مكان.

بيكمان : إنك تعذبني أيها القائل نعم.. اذهب عني.

الفتاة : (دون أن ترى بيكمان)أيتها الـسمكة. أيـن أنت؟ أيتها السمكة الصغيرة الباردة؟

بيكمان : أنا؟ أنا ميت.

الفتاة : أوه.. أنت ميت؟ وأنا أبحث عنك في الدُنيـا بالـ..

بيكمان : لِم تبحثين عني؟

الفتاة : لـ.. لأني أحبك. أيها الشبح المسكين. والآن أنت ميت؟ رغبت لو قبـلتك أيتها الـسمكة

البادرة؟

بيكمان : هل ننهض ونواصل المـسير لأن الفتيـات ينادين علينا؟ أيتها الفتاة.

الفتاة : نعم.. أيتها السمكة.

بيكمان : لو لم أكن الآن ميتًا..؟

الفتاة : أوه لذهبنا سويا إلى الدار.. إلى داري.. أجل إلى الحياة أيتها السمكة الـصغيرة البـاردة. عودي إليها من أجلي؟ وتعالي معي.. فنحن نريد أن نحيا سويا.

بيكمان : هل أعيش؟ هل بحثت عني حقيقة..؟

الفتاة : طوال الوقت. أنت؟ وأنت وحـدك؟ كنـت أبحث عنك طوال الوقت. أوه.. لماذا أنـت ميت أيها الشبح الرمادي المسكين!؟ ألا تريد أن تعيش معي؟

بيكمان : بلى.. بلى. إنني قادم معك. أريـد أن أحيـا معك..

الفتاة : أوه يا سمكتي؟

بيكمان : هاأنذا أنهض وأنت المصباح الذي يـضيء الطريق أمامي لي وحدي.. ونريد أن نحيـا سويا، وأن نسير إلى جوار بعض، ملتصقين على قارعة الطريق المظلم.. تعالي. نريـد أن نحيا سويا. ويلتصق كل منـا بـصاحبه. تعالي..

الفتاة : أجل.. أجل.. أضيء لك وحدك على قارعة الطريق المظلم.

بيكمان : تقولين إنك تضيئين؟ إذن ما هذا؟ ولكن كل شيء سيغرق في الظلام. أين أنت إذن؟

(يسمع من بعيد جدا صوت أقدام ذي الساق الواحدة).

الفتاة : أتسمع؟ دبيب ديدان الموتى. لا بدّ أن أذهب أيتها السمكة. لا بدّ أن أذهب أيهـا الـشبح البارد المسكين.

بيكمان : إلى أي مكان تريدين الذهاب؟ ابقي هنا.. لقد أظلمت الدُنيا فجأة. أيتهـا المـصباح أيتهـا المصباح. أضيئي.. من هناك يدق؟ بالتأكيد

أن أحدا يدق. تك توك – تك توك من الذي كان يدق هكـذا!؟ هـا هـو تـك تـوك – تك توك..! الصوت يعلو دائمـا. ويقتـرب باستمرار... تك توك – تك توك – تك توك. (يصيح ها هو.. (يهمـس) العمـلاق.. ذو الساق الواحدة والعكازين. تك توك – تـك توك – تك توك. إنه يقتـرب.. إنـه يتجـه نحوي.. تك توك – تك توك. (يصرخ) أذو الساق الواحدة (بصوت هادئ) بيكمان.

بيكمان : (بصوت خفيض) هاأنذا.

ذو الساق الواحدة : ما زالت تعيش يا بيكمان؟ لقد أرديت قتـيلاً يا بيكمان وما زلت تعيش؟

بيكمان : لم أقتل أحدا.

ذو الساق الواحدة : بلى يا بيكمان. فنحن نقتل فـي كـل يـوم. وفي كل يوم نردي قتيلاً.. كل يوم نمرُ بأحد القتلى غير عابئين. وأنت قتلتني يا بيكمان. هل سرعان ما نسيت هذا؟ لقد مكثت ثلاثـة أعوام في سيبريا يا بيكمان... ومساء الأمس

عدت إلى داري.. ولكن مكاني كان مشغولاً. كنت أنت يا بيكمان في مكاني.. عندئذ قفزت في نهر الألبيه. كان ذلك مساء الأمـس يـا بيكمان... هل كان هناك مكان سواه لأذهب إليه؟. أليس كذلك يا بيكمان؟.. وكان نهـر الألبيه باردا ولكني الآن قد تعـوَدت علـى برودته.. فأنا ميت. أيمكنك أن تنـسى هـذا بسرعة يا بيكمان؟ لا ينسى المرء قتيله بهذه السرعة يا بيكمان... لا بدّ أنه يتبعـك يـا بيكمـان.. حقًـا.. لقـد أخطـأت.. كـان المفروض ألا أعـود إلـى الـدار. لأنـه لم يعد لي في الدار مكان، وأنـت احتللـت مكاني. لست أتهمك يا بيكمان فكلنـا قتلـة. نقتل في كل نهار وكل ليلة ولكن مع ذلـك لا يجب أن ننسى ضحايانا بهـذه الـسرعة، ولا يجب أن نمرّ بقتلانا مرّ الكـرام. حقًـا يـا بيكمـان لقـد اغتـصبت مكـاني.. على أريكتي.. مع زوجتي.. زوجتي التـي

حلمت بها ألف ليلـة

في سيبريا وفي الدار. وجدت رجلاً داخـل حلتي يا بيكمـان. وكانـت حلتـي عليـه فضفاضة.. ولكنه ارتداها. فقد أحسَ بمتعـة الدفء وهو داخلها.. مع زوجتـي. وكنـت أنت هو ذلك الرجل يـا بيكمـان.. عندئـذ انصرفت وقفزت في نهر الألبيه حيث البرد القارس.. ولكن سرعان مـا يعتـاد عليـه المرء.. والآن لم يمضِ على موتي – سوى يوم كامل – وأنت هـو قـاتلي وسـرعان ما نسيت مقتلي. لا يجـب أن تفعـل هـذا يا بيكمان. لا يجب على المـرء أن ينـسى قتلاه.. فلا يفعل ذلك سوى الأشرار بالفعـل أنت لا تنساني يا بيكمان أليس كذلك؟. يجب أن تعاهدني على أنك لن تنسى مقتلي.

بيكمان : لن أنساك

ذو الساق الواحدة : هذا جميل منك يـا بيكمـان. إذن يمكننـي أن أموت مرتاح البال. لأن واحدا يـذكرني

على الأقل، على الأقل قاتلي – فقط مـن آن لآخر. وأحيانًا في المساء حين يتعذر عليـك النوم. إذن ففي استطاعتي أن أموت مرتـاح البال (ينصرف).

بيكمان : (يستيقظ) تك – توك – تك – توك

أين أنا؟ هل كنت أحلم؟ ألم أمت؟ ألم أمـت بعد؟ تك – توك – تك – توك – على مدى الحياة. تك توك إلى الأبد. تك – توك – تك – توك. أتسمع ديدان الموتى؟ وأنا.. وأنـا سأعيش.. وفي كل ليلة يقـف إلـى جـوار مضجعي شخص، لا أسـتطيع التخلـص من وقع خطوة تك – توك – تك – تـوك. لا. أهذه هي الحياة. إنسان يعود إلى ألمانيـا وهو يرتعد من البرد. يجوع ويعرج. رجـل يعود إلى ألمانيا وهو يرتعد من البرد. يعود إلى داره ليجد مـضجعه مـشغولاً، بـاب يصفَق، ويقف هو في الخارج. رجل يعـود إلى ألمانيا، يعود إلى ألمانيا ليجد فتاة. ولكن

إلى الفهرس

الفتاة لها زوج ذو ساق واحدة يصرخ باسـم على الدوام والاسم هـو بيكمـان. وبـاب يصفَق. ويقف بيكمان في الخارج.

رجل يعود إلى ألمانيا يبحث عـن آدميـين ولكن كولونيلاً يموت من الـضحك. وبـاب يصفَق ويقف الرجل في الخارج.

رجل يعود إلى ألمانيا. يبحث عـن عمـل ولكنه يجد مديرا متخاذلاً. وبـاب يـصفَق، ويقف هـو فـي الخـارج. رجـل يعـود إلى ألمانيا. ثم يعـود ذو الـساق الواحـدة، تك – توك – تك – توك. وهو يتقدَم منـه، تك – توك – تك – تـوك – ويبـادره ذو الساق الواحدة: بيكمان. ويردد على الـدوام بيكمان وهو يتنفس بيكمان، وهو يـصرخ، بيكمان، ويلعن بيكمـان، ويرجـو بيكمـان ويلازمه قاتله مدى الحياة تك – توك – تك – توك – والقاتل هو أنا؟ أنا المقتول، الذي قتلوه أنا هو القاتل؟ من يحمينا من أن نصبح

قتلة؟ نقتل كل يوم، وفي كل يوم نرتكب جريمة قتل. في كل يوم نمرُ غير عابئين بالموت. والقاتل بيكمان لم يعد يحتمل أن يكون القاتل والمقتول في آن واحد. وهو يصرخ في وجه العالم إني أموت.. ثُم يرقد في أي مكان على قارعة الطريق. الرجل الذي عاد إلى ألمانيا يموت.

فيما مضى كانت تلقى على قارعة الطريق أعقاب السجائر وقشر البرتقال وبعض الفضلات أما اليوم فآدميون.. ثُمَ يأتي كانس!.. كانس المباني، يرتدي حلة بها أشرطة حمراء موظف بشركة التحلل والتعفن. ويجد القاتل المقتول بيكمان. يكاد يموت جوعا يرتعد من البرد، ملقى على قارعة الطريق في العقد الخامس من القرن العشرين؟ على قارعة الطريق في ألمانيا؟ والناس يعبرون بالموت غير عابئين. يعبرون في استسلام مهين غير

عابئين.. غير عابئين.

والميت يراوده في حلمه إحساس عميق بأن موته كان شبيها لحياته: غامض.. بلا معنى ولا أهمية..

وأنت تريدني أن أعيش لأي غايـة؟ لمـن؟ لأي شيء؟ أليس لي أدنى حق في أن أموت في أن أنتحـر؟ هـل أظـل أقتـل وأقتـل على الدوام؟ إلى أين المطاف إذن؟

كيف سأعيش؟ مع من؟ لأي شيء؟ إلى أين مطافنا في هذا العالم؟ لقد ارتكبوا في حقنـا خيانة بشعة. أين أنت أيها الآخر؟ أين أنـت الآن.؟

أين أنت أيها القائل نعم؟ أجبنـي. أنـا الآن بحاجة إليك أيها المجيب أيـن أنـت؟ لقـد اختفيت فجأة أين أنت أيها المجيب؟ يا مـن لم ترض عن موتي.. أين الرجل العجـوز الذي يدعو نفسه الـربَّ؟ لمـاذا لا يـتكلم؟ أجيبوني.

لماذا؟

أما من أحد يجيب؟

أما من أحد يجيب؟

أما من أحد يجيب على الإطلاق.!!!

(يسدل الستار)